فيس وليلى

مروة الطحاوي



اسم الكتاب: فيس وليلى
التأليف: مروة الطحاوي
موضوع الكتاب: خواطر
عدد الصفحات: 160
عدد الملازم: 10 ملازم
مقاس الكتاب: 14 x 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 19142/ 2016
الترقيم الدولي: 4 - 570 - 278 - 977 - 978

١٤٣٨هـ
٢٠١٧م

التوزيع والنشر

دار البشير
للثقافة والعلوم

darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com
01012355714 - 01152806533

إهداء

إهداء إلى مهجتيَّ من الدنيا: أبي وأمّي.

إلى ربيع عمري وزهرتيْه: نادر، زهور، هالة.

ثمّ

لكلِّ مَن تَمَنّى معي هذه اللحظة،

أن أصير كاتِبة.



مقدمة

يُحكى أنّه كان،

في قديم الزمان،

كان هناك فتًى يُسمّى «قيس»، أحبَّ فتاةً تُدعى «ليلى»

ثم كان بينهما من الغرام ما جعل قيْسًا يُجنّ بحبّ ليلاه، ويزيد جنونُه كلّما بَعُد عنه مبتغاه!

فأخذ المسكينُ يُسطّر في محبوبته ما دلّ على فرط هيامِه حتىّ إن كلّ مَن يقرأ ما خطّه الأخ «قيس» في الأخت «ليلى»؛ فإنه لن يملك إلا أن يشاركه ـ حتمًا ـ البكاءَ على أطلال الحبيبة!

وهل صمتتْ «ليلى»؟

الحقيقة أننا لم نقف على ما خطّت الأخت «ليلى» لحبيبها، ولا نعلم لماذا لم يصلنا منها أيُّ ردٍّ عليه!

ومن باب حُسن الظنّ؛ علينا أن نقول: لعلّها كتبت له بعضَ المكاتيب التي وقعت في يد أمّها فقطّعتها إربًا!

أو أنّ « ليلى» لم (تفكّ الخطّ)، أو أنها كتبتْ ما وصل لقيْسٍ غير أنهما اتفقا على أن يصير كلامُها خبيئةَ قلبِه..

على كلٍّ أنا على يقين أنّ المسكينةَ «ليلى» بذلتْ ما بوسعها؛ لتثبت حُسن منطقها وصدقَ حبّها ورهافة حسّها وتفانيها في غرامها..

قررتُ أن أفعل كما فعلتْ «ليلى»..

أن أسجّل لقيْسي ما يجول بخاطر القلب والروح

وما أمّر به كابنةٍ أو أختٍ أو طالبةٍ أو ممرضةٍ أو مدرّسةٍ أو حبيبةٍ أو مصريةٍ (أدّ الدنيا)!

قررتُ أن أبثَّ قيسًا كلّ شعوري وأحاسيسي،

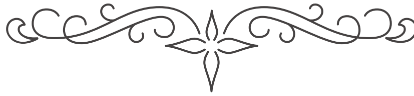
أن أشاركه يوميّاتي.. وحياتي..

المُحزن منها والمُفرح، تلك المليئة بالأمل أو الألم، الجادّ منها والهزل.. أن أبثّه مَعَانيَّ.. أن أبثّه (أنا).. فما المرء إلا معانٍ..

غير أنّي فوجئتُ بمفاجأةٍ لم أحسبْ لها حسابًا.. (مفيش قيس)!!

وبعد ضرب كفٍّ بكف.. وأخماس بأسداس.. وكلماتٍ من قبيل (يا حوستي، يا لهوتيني ـ مثّنى يا لهوي ـ يًا خرابي) وبعد استرجاع وتسليم.. قررتُ ألا أفقد الأملَ في لقاء «قيس».. وأن أسطّر له ـ مؤقتًا ـ وبعد إذن سي مارك ـ على صفحاتِ الفيس..

فكان هذا الكتاب «فيس وليلى»



(١)

أحيانًا؛ تروق لي بعض الأفكار المعكوسة..

كأن أترجّل مثلًا في فناء بيتنا حافية القدمين.. اتّساخهما بطين الزرع يضفي عليّ نوعًا من السعادة!

أو أن أنتعل نعل أبي الذي يسعُ مع قدمي ثلاثة أقدام أخرى.. أنظرُ لشبرٍ تبقّى من النعل دون شغله بشيء.. أبتسم!

أعشق ـ كذلك ـ اللحظة التي أرجع فيها من السفر لأجد (بوّابة) البيت مغلقة ووالديّ ليسا موجودَيْن بينما مفتاحي الخاص يسبّح بحمد ربّه في محافظةٍ أخرى تعجبني اللحظة التي أقرر فيها تسوّر بيتنا. أشجّع نفسي على التسلّق الذي لا يخلو من مخاطرة.. أحيّيني بشيءٍ أحبّه عند الانتصار بقفزةٍ أخيرةٍ تجعلني في داخل البيت.. لصّةً ماهرة!

وأنتشي عندما أحكِم مسك الملعقة في نصف بطيخة يتهيّأ لي أنها طبق وأن الناس ـ كل الناس ـ لم يهتدوا لمثل ما اهتديتُ إليه!

وما لهؤلاء يأكلون حبّات العنب بأيديهم! ألم يجرّبوا أكله بالشوكة؟!

الجلوس في (برويطة)، متشبّهة بطفلٍ في عربةٍ تجرّها أمُّه أو تدفعها، بينما تتشبّه بسنت بالأم تدفعني وأمي هنالك ترمقني بنظراتها وابتساماتها المخفيّة وتتمتم (والله هبلة يابنتي)!

يستهويني كذلك شرب الماء المثلّج في طبق وأكل فصّ البرتقال بعرضه!

أحيانًا..

تختار أنت ـ وبمحض إرادتك ـ انعكاس الأمور لتبتسم، لتنسى ـ وهيهات ـ بعض ما فُرض عليك معكوسًا!



(٢)

كنتُ آنذاك طفلة، وكانت ليلة عرسهما..

انصرف الحضور وانقضت الـ (زيطة والزمبليطة) وكان كل شيءٍ على ما يرام.

في المساء رأيتُهما ـ قَدَرًا ـ في شرفة بيتهما الجديد المطلّة على فناء بيتنا.

لم أسمع بطبيعة الحال كلامهما، بيْد أنني رأيتُ يديه تشيران إلى بيوتات أبناء عمومته وأعمامه.

استشعرتُ جمالًا في الموقف، انتقلتْ سعادتها إليّ!

إذ.. ما أجمل شعور امرأةٍ في كنفِ زوجٍ يكون هو نافذتها المطلة على دنياها الجديدة التي لا تعرف فيها إلا هو!

راق لي منظرهما كثيرًا.. هو عندها القاموس بين دفّتيْها.. هو الأُنس، وهي عنده المتن إذ لا مكان لحاشيةٍ ولا وَحشة!

لم أطِل النظر لهما فإن كانت الأولى قدرًا؛ ستكون الثانية اختلاسًا، ولسنا من أهل الاختلاس.. ولو للحب!

لم أطِل النظر قلتُ، ولكنّي أطلتُ التفكير في يوم غدٍ كيف سيكون!؟ هل سيُبقي هو على بعض البيوتات دون إشارة؛ لتكون بدء السمر بينهما غدًا!؟ أم إن اليوم إشارة وغدًا حكاية لتزول كامل وحشتها في المكان؟

أم أنه ـ على عادة الأزواج الجدد في قريتنا (ذات العائلة الواحدة المتفرعة)؛ سيتجول الزوج مع زوجه مسلّمًا على أصحاب الدور أو يذهبون إليهما؟

كانت أسئلة عديدة في ذهني.. أسئلة ما كان يخطر ببالي أبدًا أبدًا؛ أن تكون بينها اليوم هذه الأسئلة:

أين ذهب حبهما؟!

لماذا لا تقبل الدنيا أن يستمر كل شيء على ما يرام؟!

ولماذا كُتب على الحبّ دائمًا أن يموت، أو يُقتل؟!



(٣)

بعدما دمعتْ عيناها وحسبتُها تبكي؛ ضحكتْ أمي وشرعت تحكي لي عن «الواد فتحي» تقول:

– فكرتيني بفتحي!

ـ فتحي مين؟

ـ وأنا في رابعة ابتدائي، كان فيه ولد في الفصل اسمه فتحي، كان شاطر وكويس خالص، وبعدين.. وأنا قاعدة كده اتّاوبت (من التثاؤب) فعينيا دمعت، قعدوا يسألوني في إيه؟ مالك؟! في إيه؟!

معرفتش أقولهم في إيه، هقول كنت بتآوب؟! (تبقى عيبة!) قلت الواد فتحي ضربني!

ـ وبعدين يا أمّه عملوا إيه؟

ـ راحوا نادوا الأستاذ وقالوا فتحي ضربها!

ـ وعاقبه؟!

ـ والله خده عند الزير ومدّه (ضربه على قدميه) وادَّالو حتة علقة!

ـ حرام عليكي يا أمه! طب وما عرفش يدافع عن نفسه ويقول ماحصلش؟!

ـ أيوه قعد يقول، بس الأستاذ قال له: دي عمرها ما بتكذب، أكيد انت ضربتها!

ضحكتُ وكافأتُها بتقبيل يديها كما تكافئني بحكاياتها التي لا أملّ منها، وأشفقت على عمي فتحي جدًّا حتى أنني قلتُ: (والله لو أعرف ساكن فين لاروح له عشان يسامحنا) وضحكتْ الحبيبة.

في الحقيقة لم يمرّ عليّ موقف الأستاذ مرور الكرام، الأستاذ الذي أساء الظن وعاقب بلا رويّة؛ لأنه واثقٌ في طالبته التي لا تكذب أبدًا.

في الحقيقة؛ قدّر الله تعالى لي أن أسمع من أمي هذا الموقف الذي قُصد منه الضحك والترفيه ليكون بمثابة (تحويلة) أيامي هذه.. وخصوصًا هذه!

في الحقيقة الثقة المُطلقة فيمن نظنّ بهم خيرًا، وكذلك اللا ثقة المطلقة فيمن نظن بهم شرًّا= كارثة حقيقية!!

فكم مِن فجعةٍ تأتي من قِبل كرام، وكم من كرم يأتي من قِبَل مَن حسبناهم لئامًا!

وكما قيل قديمًا (أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وابغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما) أقول: ثق في حبيبك هونًا ما؛ فللدهر تصاريف عجيبة لولا لطف الله لطاش العقل من عجبها والله!

كيف نحب؟ كيف نكره؟ كيف نثق؟ كيف نُحسن الظن؟ كيف نسيء؟ كيف نحيا؟!

أقول تعلّموا.. يُقال، وكيف نتعلم؟!

أردد ما قال الله (واتّقوا الله ويُعلّمكم الله)

(٤)

وعلى عربة والدي الـ BMW أو ما يطلقون عليها كذبًا (موتوسيكل)؛ كنت أستمتع اليوم بجو الـ(مغربية) وسط (غيطان) ريفنا الكبير آيبين من زيارةٍ؛ ما شدّني لزيارة أصحابها إلا قول أبي لي (هيطبخوا لنا بصارة)!

بين ترنيمات مختلفة.. موتوسيكل أبي، آثار الزيارة والبصارة، أذكار المساء وسط الحقول؛ كنت أحيا حياةً طيّبة!

فجأة يهدّئ أبي من سرعة دابّته.. ثم أسمعه يقول: (ناس ذوج (ذوق) قوي)!

ـ مين يا ابويا؟

ـ شفتي الراجل؟ استنَّى بالعربية لحد ما اعدي!

(سائق ملاكي ينتظر مرور أبي صاحب الطريق حسب قواعد المرور أصلًا) يشكره أبي على انتظاره وكأنه أسدى إلينا معروفًا أبديًّا لا حلّ لنا من شكره ما حيينا!

أدّعي إعجابًا بموقف الرجل؛ إرضاءً لأبي، وأتحسّر على واقع مجتمع أصبح إعطاء الحق فيه نوعًا من (الرفاهية الأخلاقية) يُشكر عليها من يقدمها!

أمّة يشعر الضعيف فيها بامتنان للقوي أن دافع عنه، والفقير للغني أن أعطاه حقه= أمّةٌ أمامها الكثير لتنتصر!

لسه بدري!

(٥)

(صاصا.. بحبك يا صاصا،

صاصا.. بحبك موووووووووت،

بحبك يا صاصا،

ارجع بأه يا صاصاااا!

بموت فيك..

أنا اتغيرت عشانك ياصاصا

بحبك يا صااااااصاااا!)

على سور مبنى كبير كتبتْ مُحبّةُ «صاصا» هذه الاعترافات..

بخطٍّ كبيرٍ أعرج بالمادة التي يستعملها الثوّار في كتابة شعاراتهم، ولِمَ لا!؛ فقلب محبّة صاصا ثائر!

بدا لي من خلال عرجة خطّها- هذا إن سلّمنا جدلًا بأن خطوطنا تتشاف أصلًا- أنها في المرحلة الإعدادية تقريبًا.

حاولتُ جاهدةً حفظ كل عباراتها بدقّة فباءت محاولاتي (المبذولة فيما لا يقل عن أسبوعين) بالفشل.

أحرفها كبيرة، تتناسب مع كِبر همّ تمرّ به الصغيرة.

حرف الصاد يستدير بعرض السور ثم ينحرف بطوله من أول شارع (السوق) متجهًا شمالًا مرورًا بالسور المحيط بمقبرة النصارى ثم

يستمر كثعبان كبير ابتلع كل المارّة بجوار السور إلى أن يصل لـ (موقف الفردوس).

هنا عرِفتْ مُحبّة صاصا أنني سأستقل سيارةً أخرى مضطرة (مضطرة.. والله) أن تَكون اعترافاتها خلف ظهري لأسير في الاتجاه العكسي، تشفق عليّ، تنتهي اعترافاتها.

جريئة محبّة صاصا، ومحبّة له حقيقةً، ويبدو أن صاصا (القاسي) سامحه الله قد هجرها رغم معرفة قدره عندها؛ مما اضطرها للصراخ في الشارع من خلال أحرفها.

المُحبّة الصغيرة تحفظ بدقّة اتجاه حبيبها (غالبًا هيكون رايح درس أو جاي من درس) وعليه؛ فإنها تسطّر له هو، في طريقه هو، بأحرفٍ كبيرة أكبر من عينيه وأذنيه وفِيهِ وأنفه؛ ليراها كلُّه.

لكن هل تشفع كلُّ هذه الحواسّ عند قلب «صاصا»!؟

بغضّ الطرف عن ماهيّة حبّ الصغيرة الأرعن والذي سيكون طرفتها بين صويحباتها يومًا ما؛ فإن الحبّ (الحقيقي) يستحق الكثير من العناء والـ (كتابة) بأحرفٍ مدادُها دمع العين على (سور) التسليم لقدَر الله.

ما مِن حوّاءٍ إلا وأحبّت.. بيْد أن جميعهنّ لا يمتلكن جرأة محبّة صاصا.. أو أن «صاصاتهنّ» لا يجيدوا قراءة أحرفهنّ..!!

ولكِ أنتِ أقول:

أحبّي من يحبّ حرفك،

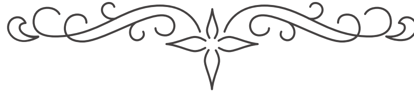
يقرأه بِشغف،

يحفظه عن ظهر قلب،

يبادلكِ (فيما أحلّ الله) حرفًا بحرف..

حبًّا بحبّ..

ولا يضطرك أبدًا أبدًا لأيّ سور اللهم إلا.. سور قلبه.



(٦)

لها رزقٌ عند الله ـ تعالى ـ من خلالي،

فقط جنيه ونصف الجنيه،

لا أعرفها ولا أعرف لها عنوانًا،

لستُ في حاجةٍ ـ أصلًا ـ لمعرفتها،

كذلك هي!

لها عند الله رزقٌ من خلالي،

لن أذهب إليها، لا وقت عندي!

كيف السبيل إذًا؟

ستأخذ مالها على كل حال..

بعد قليل سأصعد درج البناية التي أقطن بها،

سأكتشف أن باب المنزل ـ الذي لم يُغلق ـ يأبى أن يفتح إلا بمفتاح!

المفتاح بالداخل، تبًّا لك سائر الليلة، بابٌ وغد!

سأتّصل بمالكة البيت،

ستطلب منّي الذهاب إليها لاستلام نسخة أخرى من المفتاح.

أروح وأجيء، موقف العربات بجوار السوق، ياللهول كم أحبّ التسوّق!

في البيت سمكةٌ واحدة، سأطهو بجوارها الأرز بطريقة أمي التقليدية:

ـ ما رأيك مروتي في بصلٍ أخضر؟!

ـ بكام ربطة البصل يا ماما؟

ـ بجنيه ونص.

لها عند الله رزق..

تأزّم حالي، وفقدان (مفتاحي) كان(فتحًا) لها.

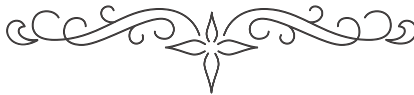
ربّما يُغلق (عندك) فيُفتح (بك) لغيرك،

وربّما يُغلق عند (غيرك) بما يُفتح (لك) به.

دابّةٌ أنت (على الله) رزقُها!

اصبر يا صاح؛

سيُفتح لك.



(٧)

لا أحبّ الحديث في وسائل النقل إلا مضطرة،

اضطررتُ حينها..

يجلس أمامي، كتفُه يعوق حركة زجاج النافذة، أريد هواءً!

«لو سمحت لحظة بس افتح الإزاز»

كنتُ صادقة في قولي «لحظة»، مرّت لحظات!

بيدي اليمنى، ثم اليُسرى، ثم كلتيهما، ثم بكلّ قوّتي..

الزجاج لا يتحرّك

- سائقٌ سيّئ.. لماذا لا يُصلح حافلته؟!!

يبدو أنني أطلتُ،

بنصف التفاتةٍ منه، وبأصبعين فقط، فتح الزجاج!

***

لم تزل نون النسوة في احتياجٍ وإن ادّعتْ استغناء..

القوّة المدّعاة تنهار أمام القوامة المستحقّة.

هنّ في حاجةٍ لهُم!

لطعناتهم.

لا أقول في قلوب اليهودِ فحسب؛ بل في قلب عالَمٍ مسعور وواقعٍ مخيف ومستقبلٍ لا معالم له!

(٨)

الله (أكتر) يا رب (سيرك)!

كنتُ آنذاك طفلة لا علم لي بدار العلوم فضلًا عن أسس العربية، ولا قِبَل لي بتصحيح ما سطّر عمّي على جداره.

كان جدار بيته المفضي إلى الـ (مصطبة) ذا طلاءٍ فَقَد من رُقيّ سعره بقدر ما اكتسب من رقيّ أيامه.

وفي منتصفه خُطّت تلكم العبارة (الله أكتر، يا رب سيرك)، كنتُ أقرأها مرّةً تلو الأخرى، أشعر بأنّها لا تتناسب مع ما أتعلمه على يد الأستاذ (عبد العال) في كُتّاب القرية، لكنّي على كل حال كنت أعرف في قرارة نفسي أنّ عمّي (محمود) صاحب الجدار يعرف أكثر منّي؛ فلا أعلّق كثيرًا.

مرّت الأيام، كبرتُ بما يكفي لاكتشاف خطأ عمّي الذي علمتُ فيما بعد أنّه لم ينل قسطًا من التعليم يمكّنه من تمييز (وضع النقاط على الأحرف)، لكنّي لم أصحّح خطأ عمّي، ولا أذكر السبب هل كان حياءً منه أم ريبة في علمي أم أنني أُعجبتُ بالكلمة على حالها؟ ربما!

صباح الجمعة وفي أول لمعان نهارها؛ كان أبي بجواري في انتظار دابّة تقلّني إلى القاهرة حيث دار العلوم.

(مع السلامة يا ابويا).. قلتها ثم التفتُّ فإذا بأحدهم يدقق النظر فيّ متسائلًا:

ـ تعرفي الحاج محمود؟

ـ عمّي.

ـ هو عامل إيه دلوقت؟

(ابتسمت بحسرة ثم أخبرته بموت عمّي منذ ما يقارب عشر سنين!)

مات عمّي وما مات جمال أحرفه التي كُتبت بمحبرة اليقين على جدار الزمن.

ما ضرَّ عمّي (ولا ضرّني والله) وضع نقطة حرف الباء فوقها لتصير الله (أكتر) بدلًا من (أكبر)، ولا ضرّنا أن يضع نقطتي التاء تحتها لتصير(سيرك) بدلًا من (سترك)، فلطالما آمن عمّي بأن الله (أكبر) ولطالما ردد: يا رب (سترك).

مات محمود السيرة بين أهل الأرض وقد ستره الله حتى آخر أيامه وقد رفع سبّابته على فراش الموت مرددًا: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) معلنًا أن الله هو الأكبر!

لا أعلم على وجه الدقّة لماذا تذكرت جدار عمّي الآن، لكنّي أظنّ أنه حريٌّ بنا أن ندقق النظر في أسطر حياتنا وعباراتها وأحرفها ونتساءل ونجيب بصدق: هل كل النقاط على الحروف؟

الله أسأل ألّا نكبّر غيره سبحانه وألا نشرك به أندادًا.. لا من أعدائنا ولا مما وممّن نحب!

الله أسأل أن يسترنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض عليه.

الله أكبر

يا رب سترك.

(٩)

السابعة إلا الربع صباحًا..

زقزقت العصافير، والغربان معًا!

انتهت شعائر صلاة الفجر فما لبثت أجراس الكنيسة أن دقّت..

تتوافد طالبات (الإعدادية) (بنات) إلى المدرسة. تتوافد ـ كذلك ـ بعض المتبرّجات لـ(تعدّهن) جيدًا!

واحد اتنان ثلاثة أربعة.. تُعدّهنّ.. جيدًا.

سأهرع الآن إلى الثلاجة وأخرج وعاءً به بعض عسل النحل أتجرّع ـ على مضض ـ ملعقة منه.

العسل به شمع لكنّني أوقن أن ما تحت الشمع خليط من الماء والسكّر!

الطالبات يحيين (العَلَم).. العصافير تختنق.. الغربان تطرب فرحًا.

سأرتدي حجابي وأذهب إلى عملي.

سأمرّ بجوار مدرسة الإعدادية..

تروقني عبارات النظافة على سورها.

سأبتسمُ ابتسامة عريضة جدًّا؛ لأنني أصبحت قادرة على (تنشين) كيس الزبالة في أعلى نقطة والتي تتوازى تمامًا تمامًا مع سور المدرسة!

سأستقل الـ (سوزوكي) إلى مدرستي.

طابور الصباح اليوم تحت إشرافي.

سيصطفّ طلبةُ التمريض أمامي.

رجالٌ أنبتت لحاهم، فحلقوها!

لابد أن تحلقها يا جبان؛ احترم قوانين المدرسة!

سأنهر كلّ من أتى بقميص مخالف أو متأخرًا عن موعد الطابور.

سأغضّ الطرف عن مخالفاتٍ أخرى وتأخرهم عن موعد صلاة الظهر بعد أربع ساعات من الآن.

أثبتُ لهم ـ من خلال (شخطي) فيهم ورفع صوتي عليهم وتخويفهم بدرجات أعمال السنة وسيطرتي الكاملة على المدرسة بما أنني مشرفة اليوم؛ أنه لا فرق بين الرجال والنساء، سأنجح تمامًا في إعمال مبدأ (المساواة).

بعدها بدقائق سأدخل الفصل للشرح، ستجحظ عيناي أثناء محاولتي تقريب مقعد المعلم للمنضدة، سيرفع عني أحدهم الحرج، (لحظة يا مس) ويقربه هو!

سأسيطر تمامًا.. تمامًا تمامًا.. أثناء المحاضرة فهم يخافونني!

بعد المحاضرة؛ سأستغل دقيقتين لأمارس فيهما الدعوة (خلسة).

سيكون حديثي اليوم عن (قوامة الرجل) وأن حلّ جُل مشاكل المجتمع في فهم آيتين (الرجال قوّامون)، (وقرن في بيوتكن).

إذا مرّت عليّ لجنة من الوزارة سأعرّج قليلًا ـ وبسرعة وذكاء ـ على جمال (التعايش) وكيف تنسجم زقزقة العصافير مع نعيق الغربان!

سأشيد ببلدي.. سأحيي مع الطالبات (العَلَم).

السابعة والربع، نصف ساعة في كتابة منشور على الفيس.. تأخرت على العمل!

(١٠)

مازلتُ لا أحفظ مكان مسكني الجديد إلا إذا ترجّلتُ من العربةِ قبله بقليل.

اليوم تقدمتُ قليلًا، أمسيتُ قادرةً على تحديد (أول الناصية) من على بُعد.

يساعدني في ذلك شيخٌ يبيع كلَّ شيء، بعض المأكولات والمعلّبات والمنظّفات والأدوات.

ويكأنّه عرِف بالقاطنةِ الجديدةِ هنا فأخذ على عاتقه وضع ثلاث (مقشّات) في مَقدمّة دكّانه.

أطرق النظر من خلف(قفا) السائق.. أتوه قليلًا.. تبتسم لي المقشات من بعيد.. أبادلهنّ الابتسام، ثم:

- على (أيّ) جنب لو سمحت.

(أيّ) للتخيير تعطي للسائق فرصة أكبر في اختيار المكان المناسب (للرَكن) كما تعطيني الفرصة الكاملة في تحديد نقطة انحرافي للشارع المؤدّي للمسكن.

سألتُ نفسي: ماذا لو أغلق (عمو= آبا الحاج) دكّانه لبعض الوقت؟ ماذا لو (راح ينتخب) مثلًا؟

ماذا لو فقدتُ بوْصلتي المتمركزة في بسمة المقشّات؟!!

رهبةٌ انتباتني لولاه! لولا هذا الشاخص هناك ذو البسمة الأعرض والأدوَم!

نظرتُ له بامتنان، إذ الغريب غريق يتعلّق بـ (م) قشّة!

وقد كفاني هذا مؤنة الاحتياج لـ (م) قشّات القوم.

كان ذاك الشاخص كومًا من القمامة.. لسان حاله (أنا هنا على الناصية، بانتظارك سيدتي كل يوم، لا تقلقي).

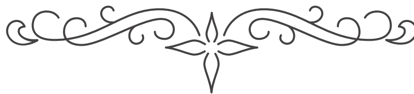
ولزيادة الإكرام فقد ألقتْ هرّةٌ بنفسها أمام (تاكسي) ليدهسها لتتكوّم في مكانها لأيامٍ قادمة، ضحّت بنفسها من أجل إرشادي لمسكني..!

علامةٌ أخرى علّمتُ بها الشارع، وإن كانت أقلّ أهميّة مما سبق.

سور مدرسة خطّ عليه خطّاطٌ ماهر عبارة تقول: (حافظوا على نظافة المدرسة)

يبدو أنها نفس المدرسة التي يوقظني صوت الأطفال فيها كل صباح ممزوج برائحة الهرّة والقمامة يقولون (بلادي بلادي بلاااادي، لكِ حووويّي وفؤااادي)

تحيا مصر!



(١١)

في بيت قريبتي، أشعر براحة.. جيّد.

والجيّد من المضيف إنما يكون أوّل ما يكون في الجودِ مع ضيفه وقد كان..

موعد جديد مع وداع شمسي التي التقيتُها صباحًا،

أسمع مُكاءً.. منذ متى تعلّمتْ شمسي الصفير؟!

غابت الشمس، ولم يغب الصوت.

فهمتُ، لابدّ أن أحدهم ـ كالعادة ـ يوقِف سائقًا ليستقل شاحنته، أو أن أحدهم ـ كالعادة أيضًا ـ يضايق إحداهنّ!

تخلد الشمس للنوم، تقترح عليّ القيام بما قامت به، أقبل اقتراحها شريطة تأجيل تنفيذه. يؤذّن للمغرب، تقام الصلاة، الرجل مازال يصفّر!

أخرج لبالكون المنزل، أتطلّع، الصوت يزعجني، لا إحداهنّ ولا حتى (توكتوك)!

أدقق النظر.. أنشغل قليلًا بسرب حمام بديع.. ينجح الحمام في إقناعك تمامًا أن السماء ـ كل السماء ـ ملكه!

يزداد الصفير، يزداد الحمام تألّقًا.. أزداد انبهارًا.

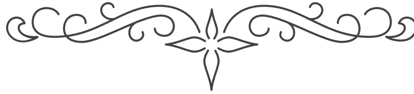
رأسٌ مستدير يطلّ من بعيد.. نفس نقطة مصدر الصوت.. لا أرى فمَ صاحب الرأس لكنني أجزم أنه المزعج!

ألتفت لسرب الحمام ليقلّ انزعاجي.. الحمام يقترب من المزعج.. يرفرف بأجنحته مرحًا وطربًا!

أكتشف أخيرًا أن المزعج صاحب الحمام.. المزعج يصفّر للحمام.. يجتمع شمل الحمام.

سبحان من خلق وذرأ وبرأ!

مَن لسِربنا بإزعاجٍ لابدّ منه ولمّ شملٍ نتوق له؟



(١٢)

في مسكني الجديد؛ اكتشفتُ مكانًا مذهلًا يمكنني من تتبّع الشمس حين وداعها إياي.

أجّلتُ صنع الشاي حتى لا تضيع لحظة اللقاء، أخذتُ مقعدي إلى النقطة التي سألتقي الشمس فيها بالتحديد.

بكوني إنسانة (اجتماعية) كما يُقال؛ فلا ضير عندي في التعرف إلى أشخاص جُدد إلا الآن!

اقتربتْ منّي، تبدو اجتماعية هي الأخرى، ألقت السلام، قدّمتُ لها مشروبًا باردًا فلم ترفض.

عجيب أن تتعرّف إليّ بالصوت فقط، فقد اكتشفتُ أنها كفيفة!

عرفتُ ذلك من ارتطامها بالدرَج أثناء صعودها إليّ.

لا بأس بلقاء الشمس غدًا.. الله المستعان.

دار بيننا حديث مقتضب لصِغر حجمها ورأفتي بها؛ احتملتُ على نفسي فحملتها!

يصيبني الاشمئزاز من الهررة، لكن لا فرار من التعامل مع ضيفتي هذه وقد أوتْ إليّ عن احتياج.

قررتُ أن أتناسى قليلًا كوني إنسانة تشمئزّ، وكررتْ على مسمعي (أنتِ ممرضة).

لستُ مختصّةٌ في أمراض العيون، لكن بإمكاني إلقاء نظرة على عينيها معرفة ماهيّة الداء.

بدا لي الأمر أشبه بلقطةٍ من فيلمٍ سينمائي قُدّرتْ لنهايته ـ حتمًا ـ أن تكون سعيدة!

وضعتها في كيسٍ من النايلون مع البقاء على رأسها خارجه، الآن سأمسح عينيها بمنديل مبلل على ألا يصيب البلل أنفها حتى لا تغرق.

أحاول تصنّع البسمة أمامها، ثم أتمتم (الله يخرب بيتك!)

تسكت.. تغرق.. أشهق!

لم يكن سكوتها من غرقٍ بل لرؤية كائن حيّ لأول مرة!

تحوّلتْ شهقتي لضحكةٍ عالية أخذنا ننظر لبعضنا أحببتُها.. سمّيتُها (أرورا) تيمّنًا بجمال عيني صبح البشكنشية!

أعدتها لمشروبها البارد، ورأسين لسمكتين كانت أمي قد أقسمتْ عليّ أن تصحباني إلى مسكني فكان القدر قد كتب لهما لقاءً مع فم (أرورا)!

لم ترتطم أرورا بالدرج، بل راقبتني حتى جلستُ ثم تسلّقت جلبابي إلى أن وصلتْ إلى سبّابتي وإبهامي اللذين أمسكا بقطعة خبز.

فضّلتْ أرورا خبزًا جافًّا في اليد على سمكةٍ شهية في الأرض!

درسٌ جديدٌ لي يا (أرورا).

سمعتُ لـ (أرورا) مواءً أخيرًا.. تقول لي (شكرًا).

غدًا سأجد أرورا عند باب مسكني، ننظر سويًّا لشروق الشمس.. نتمتم معًا.. نكتب رسالتنا معًا.

شكرًا لكل من فتح أعيننا على كل جميل.

شكرًا لكل كاتبٍ يُحسن حَرفَه، أو صانعٍ يُحسِن حِرفة.

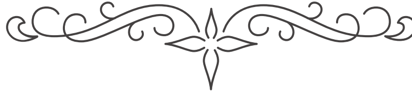
شكرًا لمن يؤنسنا بحبّه، ويكفلنا بدعائه.

شكرًا لكل مقاومٍ لباطل، وطاعنٍ ليهودي.

ممتنّتان لكم جدًّا.. يا شموس الدُنى.

إمضاء/

مروة، أرورا



(١٣)

ناديتُ (نُهى) ذات الأعوام الثمانية تقريبًا:

- «نهى، هاتي من تحت (عودين) نعناع للشاي»

في لحظات كانت نهى أمامي ومعها (فقط عودان) أضحكني الموقف في مسافة أخذتها لأرض النعناع (وقطع كبشة نعناع) ذهابًا وإيابًا وصولًا لـ (براد الشاي).

قبلها ضايقني (محمد) ذو الثلاثة أعوام فقلت له في عصبية وتهديد حسبته سيردعه:

- «هجيب عصاية وأكسرها على راسك!»

فأفحمني برده:

- (مث هتعرفي تكثريها)!

ثم زاد في إظهار قوته:

- «والله هجيب أنا عثاية وأكثرها على راثك»

وما هي إلا لحظات وكان محمد أمامي (أو تحديدًا يعلوني بيديه الصغيرتين) ومعه عصا تشبه (خلّة الأسنان) أو تفوقها قليلًا ويكسرها قطعًا فوق رأسي بأنامله الصغيرة.. أخذ يمسك بطرفيها ويكسرها دون أن يلمسني، كسّرها كما فهم الجملة بمعناها السطحي!

أعجبتني الفكرة، أعجبني محمّد، أعجبني نطق محمد وكلما رأيته قلت له (لأستفزّه للرد الذي أحببته)

ـ اثكت! والله هكثّر العثاية على راثك!

أنجح فيما أريد، يكشّر لي عن أنيابه ويعقّب (مث هتعرفي تكثريها).

لماذا لا نكون مثلهما؟ كل النساء (نهى) وكل الرجال (محمد)؟

لماذا نحسب ونجمع ونطرح وندقق ونمعن ونفسّر ونظنّ و(نفلّي) كلام الناس!

لماذا يلزمنا أن نتنازل عن براءتنا كلما كبرنا!

أللكِبَر شروط!؟

هل استشعر أحدهم حبّنا للشبّ عن الطوق فاستغلّ حاجتنا وقال (هكبّركم في مقابل فقدان البراءة) فقبِلنا شرطه؟!

طيّب، أنا أول من ينكث..

لا أريد زيادة في العمر،

أريد أن (أرتدّ) لطفولتي.

لا أريد فهم أي شيء مما يتوجّب عليّ فهمه الآن!

لا شيء يستحق الفهم.

(١٤)

انتهزتُ فرصةَ ذهاب الشباب ـ المُستَأجرين للعمل في فناء بيتنا ـ لصلاة الجمعة، ترجّلتُ خلسةً إلى حيث يوضع دلو به بعض الطلاء، أمسكت بما يسمونه (رولّة) نظرتُ لها نظرةَ مُعجَب فأومأت لي إيماءة متّفق.

في الجدار جزءٌ لم ينته الشباب من تلوينه بعد، سأجرّب نفسي فيه أولًا، وإذا آنستُ من عملي رشدًا سأنتقل لغيره.

إحساسٌ جميل، وانسيابيّة تغريك بالاستمرار، على أعلى سور (أوضة الطيور) يطلّ الجَدْي (ذكر الماعز)، الذي نستضيفه إلى صباح عيد الأضحى القادم، يطلّ عليّ بنظراتٍ متسائلة.. أقول له (شايفني وأنا بشتغل شغل الرجالة؟!) كأنّه استغرب، تركني.. وذهب!

صوتُ الخطيب واضح، حينما يقول (أقم الصلاة) سأهرول إلى داخل البيت (لا مين شاف ولا مين دري)، أنظر لما أنجزت، تعجبني (الطرطشة) التي أصابتني من الطلاء، تشبه (طرطشة) زيت التحمير غير أن الزيت يؤلم!

تروق لي الفكرة أكثر، أملُّ الجدارَ، أنتقل إلى بابٍ خشبيٍّ قديم، سيكون أفضل بلون الطلاء، في زوايا الباب لا أتمكنً من إدخال الـ (رولة) لا بأس بإيشارب أغمسه غمسًا في الطلاء ثم أحكِم مسكه في الزوايا، أغمسه، ملمس الطلاء يعجبني، أغمس يدي كلها، يذكّرني بطريقة أمي في تصفية العدس.

يدقّ جوالي، مكالمة عزيز، أمسك الجوال بيد والرولة بيد أخرى، أتحرك في الصالة، الطلاء يملأ المكان، الستارة أيضًا ينالها من الحبّ جانب!

أفسدتُ أكثر مما أصلحت، صدق أخي حين قال لي ذات مرة (كلٌّ مُيَسّرٌ لِما خُلِقَ له).

الخطيب تأخر ليه في الصلاة كده؟!

أفيق على صوت أخي ينهرني.. إيييه ده؟! الله يسامحك يا شيخه!!

ثكلتك أمك يا خطيب ألم أتفق معك على رفع صوتك في (أَقِم الصلاة)!

غيابهم هو مَن سهّل عليّ المهمّة نيّتي سليمة.

أمّي هي الأخرى بنيّة أخرى أنذرتني بترك ما لا أحسِن وذكّرتني بالـ (بوتوجاز).

لم أنتبِه وقتها، أطفأتْ النار والفراخ (لسّه ماستوتش) (وكله فوق راسي)!

يستأنف الشباب العمل، أستأنف الطبخ، تعود الأمور لنصابها.. الجدْي يشعر بالراحة!

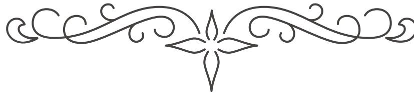
أفكّر في كلمة أخي ثانيةً (كلٌّ مُيسّرٌ لِما خُلِقَ له).. أهي حديث نقله لي أم حِكمة؟ تعجبني على أية حال.

أذكر عملًا آخر تخلّى جُلُّ الرجال عنه، غيابهم يعطي فرصة لأمثالي بالعبث بما يعنيه والوقت الذي يفترض فيه، شروطه وواجباته، غيابهم عن ميدانه يعطي لكل جاهل حقّ (الفتي).

الجهاد.. تُرى لماذا غابوا، أم في صلاةٍ طالت؟ ثكلتك أمك يا إمام.

ألم يأن الأوان لرفع صوتك (حيّ على الجهاد)؟!

أستأنف الطبخ، وميدانُهم لم يزل شاغرًا، الحُمُر تشعر بالراحة!



(١٥)

في الشارع الجانبي المتفرع من الشارع الرئيسي؛ انعطفتُ لأختصر طول طريقي.

مزهوّةً بنفسي وقد خرجتُ لتوّي من مدرسة التمريض.. طالبةٌ تحبّ مدرستها. سأكون ممرضة ماهرة بعد حصولي على دبلوم التمريض سأنافس دكتور أحمد مدير المستشفى على كرسيّه. ولِمَ لا وقد قال لي أمام الأطباء كلهم ـ بينما كان يجفف عرقه:

- لقد أحرجتِني يا مروة.. والله لطالع مديكم محاضرة التشريح عشان خاطرك انتي!

(وقد كانت أوفدتني ناظرة المدرسة مس نادية؛ لإقناعه بترك المكتب وإعطائنا المحاضرة)

أبتسم الآن وأقول كان يمزح.. لكن مروة التي هناك في الشارع تنظر لي نظرة غيظ تقول بل كان جادًّا.

كنتُ أشكّل له تهديدًا ما جعله يتعرّق خوفًا.. أتركها لقناعتها وأعود لابتسامتي بينما تعود هي لكتابة المنشور.

سأنافس دكتور أحمد.

الشارع يكاد يخلو من المارّة، واحدٌ فقط هو من تجرّأ على المرور منه.. مر بي، أو مررتُ به، مرّ كلانا بالآخر على كل حال.

لم أكن وقتها قد تمرّستُ بما فيه الكفاية على غضّ البصر.. سيعطيني هذا الفرصة للتحملق في الرجل.. إمممم شيك!

أنا ـ وإلى الآن ـ أكره اعتداد الرجل بنفسه (هذا ما أعلنه أمامهم فقط، لكنّي في الحقيقة أحب تلك الصفة فيهم جدًّا إن هي وُظّفت بطريقة صحيحة) لكنّي لم أعلن له المخفيّ.. أكره ثقتك في نفسك يا هذا!

لم يرد (هذا) عليّ ويْح أمّه! بل لم ينتبه لمروري أصلًا!

أعود مرّة أخرى لانتصاري المستقبلي العظيم (سأنافس دكتور أحمد)!

تُرى.. هل كانت رائحة الـ (بنج) التي تخبرني أمّي بملازمتها لي مذ دخلتُ المدرسة هي السبب؟ ربما!

أنيق.. اختياره للألوان لا بأس به، خفيف الشعر من الجانبين (علامة دالة أيامها على الذكاء) واثق الخُطا.. ثابتها، منتظمها، لا يعيبه إلا غروره!

يا إلهي إنه يهمس.. ييييييس!

لكن ما هذا الخبل! يهمس لاتجاهٍ عكس اتجاهي ويقول كلامًا يُستشف منه- مثلًا- أنه رجل مهمٌّ، أمعنُ النظر أدقق.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

هكذا الدنيا تعطي لتأخذ، وتجود لتسلب!

(أهبل)!!

أشفق عليه، وأقول لنفسي معتذرة.. هو لم يقصد إهمال مرور موكبك لكنه مريضٌ عقلي. أسامحه، أشفق عليه!

تزيد ابتسامتي من براءة هذه المزهوّة بنفسها، تنهرني بنظراتها.. وتُكمل كتابة المنشور!

ـ يا كبد أمك يا أخويا طول بعرض بشياكة والآخر تطلع أهطل؟!

لكن كلامه جمل مترابطة، وكل كلمة (أنقح) من أختها، مثقّف.. لولا مروره وحيدًا لقلتُ أنه يدير مجموعة على أعلى مستوى من الإدارة فقط لو لم يكن يكلّم نفسه!

أعيد التدقيق مرة أخرى، هذه المرة بعين الشفقة، حينما أنتصر على الدكتور أحمد سأعيّنه نائبًا لي (الرجل متميز برضه ومش ممكن أنكر دوره!) ووقتها سأخبره بحالة هذا الرجل.. سنجد له علاجًا بإذن الله!

أنظر نظرة (ممرضة) تحاول جمع معلومات (عن طريق الفحص والملاحظة وتسجيل العلامات والأعراض)

قدماه متزنتان، يداه متناسقتان، رأسه مستدير لا يشبه القلقاسة كمعظم رؤوس الرجال، أنفه في وسط وجهه، عيناه غير زائغتين، أذناه.. الله أكبر!!

أذناه!!

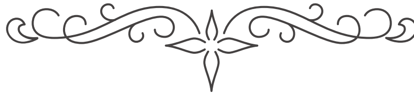
أخيرًا عرفتُ السبب!

خرّاجٌ كبير خلف الأذن.. غريب. إنه أسود اللون يمتد من خلف صوان الأذن إلى (قدّامها) محتقن جدًّا على ما يبدو حتى أنه اسودّ.. لا إله إلا الله!

يضبط الخرّاج، ثم يعيد الجملة.. الخرّاج غريب، يُعطي إشاراتٍ حمراء ينهي الكلام ينهي (المكالمة) تليفونٌ محمول في أذنه!

يسقط في يدها.. تترك المنشور وتسلّم لي الراية.

أبتسم، أخبرها الآن أن كل مَن أراهم وأراهنّ من الرجال والنساء في شوارع المحروسة يعانون من (خراريج) تكنولوجية في آذانهم وأيديهم. يتغير شكل الخراج من جوال إلى (هاند فري) إلى (لاب توب) إلى (تاب) إلى غيرها. الناس يا مروة الخير أمسَوْا (يكلمون أنفسهم) ويتركون من بجوارهم. وعلى فكرة.. مش كل اللي بجوارهم ريحيتهم بنج!!



(١٦)

- «مش هي دي يا رومه»!!

تقول لي «بسنت» بامتعاض شديد، معترضة على رسمة «سنو وايت» التي طلبتْها منّي فحاولتُ رسمها فلم أفلح!

أذكر أنني كنتُ ماهرةً في الرسم حتى أن مراقب اللجنة في المرحلة الإعدادية سألني باستغراب يوم امتحان الرسم:

- انتِ اللي رسمتي دي؟!

- أيوه أنا يا أستاذ!

- طب هلفّ تاني واعدّي عليكي تكوني رسمتي زيها!

(ليتأكد من صدق قولي، ولم يهنأ له بال حتى كررتُ رسمي مرة أخرى).

كنتُ ماهرةً في الرسم لطالما رسمتُ ولوّنتُ ونسجتُ من الأحلام الكثير.

كنتُ على يقين أن (سنو وايت) هي الأميرة، وأن الأقزام سبعة.

- مش هي دي يا رومه!

تظنّ «سانتا» أنني أتعمّد ألا تصبح الرسمة أميرةً صغيرة، لا تعرف صغيرتي أن يد خالتها أُمست ترتجف! تخاف!.. لا تحتمل أن تُفجع في رسمات أخرى وأحلام أُخَر!

الآن أشك في ذلك، ربما تكون الأميرة المقنّعة قزمًا ثامنًا!

(١٧)

في إحدى حلقات برنامجه (واحد من الناس) استضاف الأستاذ عمرو الليثي سيدة نصرانية، كانت عجوزًا، وكان مصابها في أولادها عظيماً!

تنجب ثم يكبر الولد إلى عشر سنوات تقريبًا ثم تضمر عضلاته فيموت، ثم تنجب ثم يموت ثم تنجب ثم يموت.. هكذا طول حياتها، يشبّ أولادها ثم يموتون أمامها!

حتى أنه لما سجّل معها الحلقة كانت لها من الأولاد ثلاثة على ما أذكر، كانوا في عداد الموتى!

سألها الأستاذ عمرو:

– محتاجة إيه يا حاجة (طبعًا قال حاجة مجازًا وكانت نصرانية كما ذكرتُ)!

فوالله ما سمعتها زادت عن قولها:

– مش عايزه حاجة يابني.. بدال حبيبي راضي (تقصد الرب الذي تؤمن به) أني راضية مادام حبيبي راضي أني راضية مش هو راضي؟ أني راضية!

كانت ـ على الرغم من كفرها ـ معلمةً إياي الرضا الذي لو مكثتُ عمري أدرس معناه ما تعلمته بهذه الطريقة!

ومن يومهاـ وقد مرت سنون على هذا اللقاءـ أقول في نفسي كلما حزبني أمر:

– مادام حبيبي راضي.. أنا راضية.

مش هو راضي!؟ أنا راضية.

(١٨)

كان جدّي لأمّي- رحمه الله- رجلًا طيّبًا وكانت له مساحات شاسعة من الأراضي وله بيتٌ غاية في الروعة.. بسيطٌ كبساطة جدّي!

رَحْبٌ.. كرحابة صدره، به نخلات حنونة.. أظنها قد اكتسبت حنانها منه!

وبينما كانت تقوم جدّتي ـ رحمها الله ـ بصنع الجُبن واللبن الرائب والمالح؛ كان جدّي هنالك.. وسط أرضه الرحبة.. يزرعها يرويها

بينما أرتوي أنا برؤيتهما!

كنتُ ماهرةً في تسلّق شجيرات المانجو والجوافة التي تحتضن البيت من مختلف زواياه!

فكـأنّ ثمراتِها صويحباتي.. تنادين عليّ.

أهرول لهنّ.. تختبئن. وفجأة.. هيييي وجدتُكِ يا حُلوة!

وذات يوم..

نادى عليّ جدّي وكان في الفناء الخلفي للمنزل.

لبيتُ نداءه..

ـ تعالي كرّمي الجوافة معايا.

ـ إزاي يعني يا جدي؟!

فأخذ يشرح لي، والتكريم في لغة جدي كان تهذيب الشجيرات؛ حيث يقطع الأفرع الزائدة من الشجرة والتي ليس بها ثماروالتي من شأنها ـ إن هي بقيت في الشجرة ـ أن تؤثّر على تغذية باقي الشجرة؛ فتضعفها!

تسلّقتُ الشجرةَ تلو الأخرى أهذّبها مع جدّي الحبيب.

ولما بدأتُ أشعر بالملل؛ هتف جدي بي:

ـ قولي معايا.

ـ أقول إيه؟

ـ قولي (كرو كرو).

* وكرو كرو- كما أخبرني جدي- كان رمزًا لصوت اليمامة التي كانت تودّع فراخها الصغار في عشّهم محذرةً إياهم من الصّياد الذي قد يهجم عليهم أثناء غيابها!

فكانت تحذرهم بكلمات.. يبدؤها جدّي بـ (كرو كرو) في إشارة إلى أن المتحدث هو اليمامة الأم!

وأخذ جدّي ينشد:

كرو كرو.. كرو كرو..

أيّاكو ألّا تحذروا..!

إن رأيتم أحدًا..

يلبس ثوبًا أسودًا..

فإنه الصياد.

يأتي بلا ميعاد!!

كرو كرو.. كرو كرو.

أيّاكو ألّا تحذروا..!!

أخذتُ أنشد مع جدّي حتى أَفَلَتْ شمسُ يومها وأفلت شمس جدّي بعدها في الحج..

بالقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبالقرب من الفاروق عُمر!!

ومرّت الأيام..

ولم يجد الشجر مَن يُكرّمه؛ فمات!!.

وجاء الصيّاد لثورتنا..

فلا يمام يحذّرنا..

ولا جدّي..

ولا رسول الله.

ولا عمر!!

(١٩)

أذكر أنني، حينما كنت طفلة، كنت أشاهد فى يديها بريقين: بريق الشباب وبريق الذهب الأصفر الذي تتزين به النساء.

كان خاتم زواجها جميلًا- لازلت أذكره- خاتم، وقرط، وأسورتان.. (غويشتين).

تسمع رنينهما حين تتهامسان خلسة فى يديها إذا قامت بتنظيف ملابسنا وأطباقنا.

جميلة يداك يا أمي لولانا!

لا أذكر تحديدًا.. متى خلت يداها من كل زينة.

أذكر فقط أنني كنت فى حاجة لتعليم، ومسكن، وكتب.

أذكر أيضًا أنني كنت أتزين بقرط أحببته كثيرًا.. أذكر أنني ما احتجت شيئًا إلا ووجدت أفضل منه.. هذا ما أذكره.

- أمي أمال حلقك وغوايشك فين؟

سؤال لم أجد له إجابات محددة، لكنني وجدت ترجمة الإجابة في تلبية رغباتي..!

مرت السنون؛ فاختفى من يديها البريقان.. فلا شباب ولا ذهب.!

الجميع ذهب!

تبدل بالبريق.. تجاعيد خطها الزمان على يديها.. خطوط.. كل خط منها قصة كفاح.

كل خط منها، خطوة مشيتها.. بصحبة يديها.

تعلمت المشي.. صرت معلمة لمجال أحبه. قررت أن أحضر في مجالي هذا أعلى الدراسات وفي كل مرة أخرج فيها أقبّل يديها الجافّتين أحيانًا إن كنا في شتاء. والمبللتان أحيانًا عندما تترك ملابسي في الماء لتسلم عليّ وتودعني..المجروحتان أحيانًا بسكين كانت قد أمسكت به لتعد لي الطعام الذي أحبه!

ـ واه يا أمي.. ماذا فعلت بي؟!

استقطعت جزءًا من راتبي وابتعت به (دبلة) خلت يداها منها منذ سنين..!

لم ترها بعد؛ لأنني في الحقيقة في غربة عنها!

بعد غد سألقاك يا أمي.. أزين يديك ببريقها.. ويبقى بريق الشباب فيها مهما كبرت حبيبتي.. ويبقى حبي لك في ازدياد.

فكوني دائماً بخير. أسأل الله أن يبدلكِ بما لقيتِ جنةً ذات أساور لا تظمئين فيها أبدا ..

رب ارحمهما.

(٢٠)

لا أعلم- تحديدًا- لماذا تذكّرتُ صورةَ الـ (مُلا عمر)الآن.. وأنا أبحث عن صورة الأستاذ محمود شاكر!

هكذا ـ فيما علمتُ ـ كان يحب أن يُنادَى.. الأستاذ.

أضفيتُ عليه في بداية معرفتي به ألقابًا أحسبها أكبر وأعمق فما لبثتُ أن استبدلت بها الأستاذية طالما راقت له!

الأستاذ محمود محمد شاكر. صاحب البنان الأصدق واليراع الأكثر غيرة على العربية!

داحض الأباطيل، وجميل الأسمار!

الأعلم من أستاذه، والأكثر تواضعًا من طلابه!

الأفقر ممن اغتنوا بأحرفه!

كاشف زيف طه ، ولاطمُ ـ بالحق ـ وجهَ لويس!

في لقطة سريعةٍ من بيته رأيتُ كرسيّه الـ (هزّاز).. قالوا: هنا كان يجلس شاكرٌ.

في ومضةٍ خاطفةٍ عن حياته قالوا: كانت المكتبة بيت شاكر!

في استنتاجٍ لإكمال الصورة قلتُ: القهوة.. جليسُ شاكر.

فأخذتُ جولةً في بيتنا.. كم يكلفني شراء كرسيّ هزاز؟

ما المكان المناسب لوضعه فيه؟

ما الحجرة المناسبة لوضع مكتبتي فيها؟ وكم تكلفني مكتبة تليق بأباطيل وأسمار؟

هل من سبيل للتوادّ بيني وبين القهوة بعد مجافاة!

عصر اليوم كنتُ أناجي الكتب، وأهمس لأكثرها مناسبة:

غدًا سترافقيني في حجرتي.

خمسمائة جنيهًا، تكلفة الكرسي الذي سيكون عندي ـ بإذن الله ـ خلال أيام.

القهوة؟ نعم.. أحببتُها!

لم أجبلُ على التقليد وما أحببتُه يومًا.. أتروْن فيما فعلتُ تقليدًا للأستاذ؟!

لا بأس. شريطة أن أقلّده في إحكام قبضتي على سيف الحرف مشهرةً معركةً على أحفاد لويس!

يرى السيجار لا بأس به.. و أرى إخوانيّتي لا بأس بها.

ونتفق سويًّا أن يغضّ كلانا الطرف عما يحبّ صاحبُه.

وعلى شاطئ الأسمار يجلس الأستاذ.. متحرّكًا ذهابًا وإيابًا بكرسيّه يرشف من فنجانه.

يحكي لي.. أقلّد.. أستمع.. أستمتع.. ولم تزل صورة الملّا أمامي.

ما أجمل الجهاد! بأيّ سيفٍ تستطيع تحت أي راية.. مغفور الزلّة طالما غايتك الحق ونهجك الصدقَ.

ما أجمل صورتي بين مجاهديْن!.

الملا عمر

الملا شاكر!

(٢١)

المكان: موقف الأقاليم بالقاهرة.

الزمان: السابعة والنصف مساء.

الحدث: اثنا عشر فردًا في قافلة متوجهة لمحافظتنا.

يطول انتظارنا لشخصين في علم الغيب باقيين.

أنظر في الساعة.. أحسبها بدقة سأصل بيتنا في العاشرة!

يقرر أحدهم دفع أجرتين سيتحمل مقابل مقعد.

الحمد لله.. يتبقى مقعد ننتظر.

مرتبك.. يروح ويجيء ينزل ويصعد. ينظر لنا متسائلًا:

- طيب تشيلوا كل واحد جنيه زيادة ويطلع؟

فكرة تبدو للجميع جيدة. تخطر على بالي كل مرة مشابهة وأستحي من الحديث أمام الرجال فأصمت، مواقفُ كثيرة كانت لتكون أبسط لولا صمتك. لماذا تستحين؟!

يالله يا عم توكل على الله. (يقول الجميع للسائق)

ينجح (هو) مرة أخرى في تحميلنا مقابل المقعد الباقي تنطلق القافلة.

بسيطٌ هو ليس من هؤلاء الذين يدفعون أجرة مقعدين لأجل المظهر الفارغ أمام الناس بسيط.. يتكوّم في مقعد واحد ويضع أي شيء على الآخر. لا يبدو ميسورًا، لكنه يبدو مسرورًا!

أستحي من الحديث، لكن خيالي لا يستحي من نظرة متأملة في (شقى) الركاب دومًا.

تبدو خلايا مخّي إبرتان.. أمسكهما أغزل نسيجي حول كل راكب أنظر لما نسجت أنقض غزلي أنكاثًا ثم أغزل من جديد!

توقفتْ إبرتاي عنده.. فأجابني محدثًا السائق:

- عارف؟ والله هرجع تاني الصبح!

يقصد أنه سيعود للقاهرة صباحًا، أيذهب لمحافظته في العاشرة أو ما يزيد؛ لينام؛ ليستيقظ؛ ليسافر؟!

تتوتر الإبرتان تغزل أسرع تنسج تتشابك الخيوط.

أقرر النقض أستسلم لما يغزل هو!

يقول للسائق مفسّرًا:

- العيال وحشوني!

تبدو خيوطه أمتن وأزهى. أنتقل من الاستماع إلى الاستمتاع!

- ماشفتهمش يا أخي من أيام العيد!

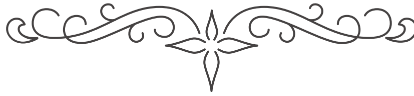
أستأذن الإبرتين في وضعهما في الخلايا البعيدة، أعدّ على أناملي.. يوم العيد!!

النهارده كام؟ ٢٤ شوال يعني يوم.. اتنين.. تلاتة.. أربعة وعشرين. العيال وحشوني!

لم يقلها ثانية بل أتأملها أنا.. جميلة!

تستأذنني الإبرتان في الاقتراب تنسج خيوطًا أخرى لا تنقض أنكاثًا أبدًا.. حول رجالٍ أُخَر، ونساءٍ أخريات أسرى وأسيرات.. عند جيش السيسي المحتل، وفي معتقلات مصر وسوريا والعراق وفلسطين المحتلة وجوانتانامو والإمارات وإيران والأردن وغيرها...

مسلمون ومسلمات.. آباء وأمهات.. عيالهم وحشوهم!!



(٢٢)

(زوجة الأستاذ أحمد)

زميلةٌ لي في دار العلوم، تكبرني سنًّا ومقامًا، تعرّفتُ عليها معرفة سطحية أثناء تصوير بعض المحاضرات، عرفتُ عنها أشياء كثيرة: أولادها، كونها محفّظة للقرآن الكريم، بلدها، غرضها من دخول الدار. تلقائية في كلامها، ليست جميلة، عاديّة في شكلها، لباسها، كلامها، كل شيء.

ـ هل قلتُ كل شيء؟

أستدرك.. بل جذبني إليها ما لم تكن عاديةً فيه..!

عنوان المنشور.. الأستاذ أحمد!

مَن هو؟ وظيفته؟ ميوله؟ تدينه؟ مؤهله؟ لا شيء.

لم تقل لي شيئًا ولم تعرّج أصلًا على الحديث عنه.

كيف عرفتِ إذًا؟!

قالت لي في معرض كلامها:

– (بصحى أشوف اللي ورايا، وعندي طيور بشوفهم، والولاد، وإن كان الأستاذ أحمد عايز حاجة، وأذاكر)

ثم بعدها..

(الأستاذ أحمد قال لي كذا، والدار هتفيدني بكذا، بعدها.. الأستاذ أحمد يساعدني في كذا.

فضوليةٌ أنا في بعض ما لا أطيق السكوت عنه

سألتها معلنةً استنتاجي الممزوج باندهاش:

- مين الأستاذ أحمد ده يا أستاذة!، زوجك؟

ففاجأتني بما توقعتُ سماعه ممزوج ردّها بابتسامة حيّية:

- آه زوجي.

ثم واصلتْ كلامها الذي لا أذكر منه أي شيء.. فقط توقفتُ عند نعتها (أستاذ أحمد)!

- (ميدو أو حمادة أو دودي أو أبو حميد) في بيتها هو (أستاذ أحمد) أمام الناس حتى لو كان المتحدث هي!

ما أخطأتْ في نعته بـ (الأستاذية) أمامي مرّة!

حتى أنني ناديتُها ضاحكةً في البداية ثم جادّة بعد ذلك (لنسياني اسمها حتى الآن)؛ ناديتُها:

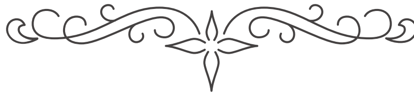
- إزيك يا زوجة الأستاذ أحمد؟ أخبار حضرتك إيه يا زوجة الأستاذ أحمد؟

زوجة الأستاذ أحمد:

- نعم.

- صوّرتي المحاضرة دي؟

الغريب أنها تجيبني بعاديّة.. لم تنتبه لكون نعتها بنسبتها إليه شيئًا ملفتًا للنظر مثلًا، بل يبدو أن هذا هو السائد عندها. هي ليست (هي) إنما هي (زوجة الأستاذ أحمد)، والأستاذ أحمد في نظرها- وفي نظر المستمع إليها صراحة - ليس رجلًا عاديًّا، بل رجل فرض احترامه عليها حتى فرضتْ هي احترامه على الآخرين!



(٢٣)

عندما تحيا لحظةً جميلةً في حياتك لا تذكر فقط المشهد النهائي لها، بل حاول قدر إمكانك أن تتذكر مَن كانوا هنالك، خلف (كواليس) القصّة، مَن اجتهدوا وجدّوا لجعلك تعيشها، مَن لم يهتمّوا كثيرًا بظهورهم في (اللقطة) الأخيرة أمام (جمهورك)..

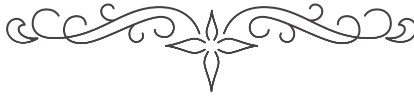
مَن كان همّهم الأول والأخير أن تصل ـ وحسْب ـ لهذه النهاية التي تمنيّتها يومًا وحمّلتهم عناء اهتمامك بها.

مَن أحبّوك رغم كل شيء،

أعانوك رغم كل شيء،

تقبّلوا منك كلّ شيء،

مكتفين بوجودهم (خلف الكاميرا) مكتفين ـ كذلك ـ بمشاهدة بسمتك.. ولو من بعيد!



(٢٤)

(مُخْطَار).. كان اسم والد تلميذٍ عندي.

هكذا بالطاء بدلًا من التاء!لأول وهلة ظننتُه خطئًا مطبعيًّا في كراسة أو قائمة الفصل.

أذكر أنني وبّخْته على ترك اسم والده هكذا دون لفت انتباه إدارة المدرسة أو إصلاح الاسم على الأقل في كرّاسه!

ردّ عليّ التلميذ قائلًا:

ـ يا مس هي كده!

ـ يعني إيه كده؟! اسمها مختار مش مخطار!

ـ هي في الشهادة كده، شهادة الميلاد.

ـ !، بتتكلم بجد؟!

ـ آه والله، ولازم أكتبها في أي مكان كده.

***

موقفٌ بسيط ليس المقصود منه محاسبة المجهول المختص بتسجيل المواليد آنذاك وإن كان(جُرمه) اللغوي مستقبحًا؛ وإنما تبيّن لي وقتها إلى أي مدى يمكن للجهلة أن يتحكموا في مسارات حياتنا وأمّتنا!

وإلى أي مدى سنبقى تحت رحمة سكّين يذبح ببرودٍ؛ ضحيّةً هي أعجز من أن تكفّ عن نفسها الأذى!

(٢٥)

ذات يوم هاتفتني أمي ـ وكنتُ في عملي في محافظةٍ غير محافظتنا ـ لتسألني عن إمكانية نزولي للبلدة من عدمه؛ حيث أننا يوم خميس، ومن المعتاد أن أسافر لها فيه..

ـ رومه.

ـ أيوه، إزيك يامّه؟

ـ جايه النهارده إن شاء الله؟

ـ بإذن الله.

ـ طب والنبي يا شيخه بدي أطلب منك طلب، هستناكي حدا الموقف بتاع.... وتاخديني للدكتور أحمد؛ أعيد الكشف.

ـ طيب حاضر، لمّا أقرب ع البلد هتصل بيكي تستنيني هناك.

واتفقنا.

على ما أذكر كنتُ صائمة، وكان الحرّ شديدًا، ووصلت للبلدة الساعة الثانية ظهرًا تقريبًا.

ـ حمدًا لله ع السلامة.

ـ الله يسلمك.

وقبلت يديها وأخذتها للطبيب.

انتهت الإعادة والحمد لله.

وفجأة..

ـ رومه.

ـ نعم؟

ـ والنبي يا شيخة نروح نزور نينتك في خمس دجايج، هناك أهي.. مش هنطوّل.

(تشير أمي للمقابر؛ حيث جدتي رحمها الله)

ـ يامّه الدنيا حر والواحد صايم ومش قادرة والسكة طويلة!

ـ معلش، عشان خاطري، ده في دجيجة هنكون هناك.

ـ الله المستعان.

ـ مش هنركب توكتوك؟!

ـ توكتوك ليه! ده هنااااك أهو.. عند الجامع. شايفة الجامع؟

ـ طب يالله يامّه!

بعد فترة..

ـ لسه كتير؟

ـ بجولك حدا الجامع والله.. شايفة؟ هناك أهو.

ـ طب يالله ياممّه!!

بعد سنة!

ـ أمه قبر نينة فين؟

ـ يا بنتي والله جرّب أهو.. عند الجامع. في ثانية هنكون هناك!.

ـ أنا مش شايفة جامع أصلًا!

ـ البتاع دهو.. الأبيض الكبير اللي باين حتة منه ده.

(طلعت بتشاور على مقام في وسط القبور الله يصلح حالها!)

ـ المقام اللي هناك خالص ده؟!!

ـ أني عارفة بجا مقام واللا مش مقام! أهو عنده وخلاص.

ـ طب مش كنا نركب له!

ـ يابنتي مش مستاهلة والله ما مستاهلة!

ـ الله يسامحك يا شيخه! يالله يامه، يالله!

بعد مسافة هي في عين التعِب من السفر الصائم المقتول من الحر تساوي آلاف الكيلو مترات مع ملاحظة أن تربة المقابر رملية مجرد السير فيها عذاب؛ وصلنا!

ـ انتي هتقعدي لي؟! جومي جولي أي حاجة فوق راس نينتك.

ـ مش قادرة! (وكنت لا أستطيع الوقوف!)

ـ طب هاتي مصحف.

ـ مش معايا مصحف.

ـ طب اتصرّفي في ميّه نرشها فوق القبر.

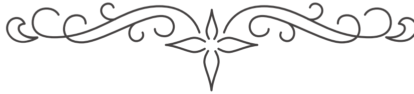
ـ أجيب لك ميه منين بس؟ وبعدين مية إيه وبتاع إيه! مفيش حاجة من دي.

ـ يعني هنسيبها كده؟!

(ثم نظرتْ لي نظرة الحائر المتسائل، ونظرت للقبر نظرة المعتذر) تبص لي وتبص للقبر، تبص لي وتبص للقبر.

فجأة اقتربت على القبر تهامس أمها (جدتي) وتقول في حنين بالغ ومشاعر جياشة وموقف يبكي له منزوع القلب:

ـ أمه لا معانا مصحف نقرا، ولا معانا ميّه نرش، سلامو عليكو!



(٢٦)

أَتَذكُرُ يوم رسمتَ حلمك بمداد الأمل على قرطاس اليقين؟

لم تكن أبلهًا حين فعلت. كانت تلك اللحظة هي الأكثر صدقًا..

والأجدر بإصرارك عليها من بين كل لحظات الحياة.

أتذكر محبرتك؟

دموعك التي ملأتها؟

بسمة ثغرك حين قلت بقوّة: سأفعل؟

خطواتك المتعثّرة نحو جدار الحياة..

تعلّق عليها مذهبيّتك؟

أتذكر حينما اتّكأت عليك؟

طبطبت عليك..

نظرتك للسماء باحثةً عن رافع عمادها..

فتنظر في كل السماء؛ لإيمانك بأن رحمته شملتها كلها..

وكل الأرض.

كل نقاطها حتى النقطة التي هي أنت!

أتذكر دثارك بحسن الظن؟

أتذكر..

يوم رسمت حلمك بمداد الأمل على قرطاس اليقين؟

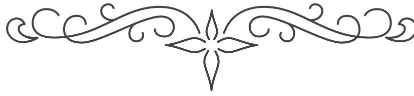
أنت.. وأنت فقط القادر على تلوينه المؤمن به!

لأن الناس.. كل الناس لن يؤمنوا به إلا حينما يصبح حقيقة!

فثابر.. وإذا عزمتَ فعلى ربّك توكّل.

لأنك أنت من بين الناس.. كل الناس

مَن يستحق أن يحيا هذه الحقيقة؟



(٢٧)

دعيني أخبرك بأمر لا يمثّل لكِ أي أهمية، لكنه مهم جدًّا عندي..

لي في مطبخنا صديقات كثيرات وأصدقاء كُثُر!

(إيد هون) أثرية، و(حلّة جدّي)، و(مخرطة)، و(مصفاة) وغيرهم..

جددنا معظم بيتنا تقريبًا بعدما نقلنا من منزل لآخر- بما في ذلك الآنية- إلا أنني ما زلت مصرّة على مرافقة أصدقائي هؤلاء.

بل وأكثر من ذلك أنني قررتُ أنه في حالة الاستغناء عن أيّ منهم لن أتخلص منه، بل سأحتفظ به أتذكّر به أيامي هذه وأذكر معهم (العيش والملح).

قد يبدو لكِ كلامي غريبًا، أنا الأخرى أحيانًا أستغرب نفسي لكن ما رأيك أن تتعرفي على كيفية نشأة الصداقة الوطيدة بيننا؟

في يوم من الأيام، وبينا أنا أعامل الآنية كجماد لا يسمع لا يرى لا يتكلم، سجّلتُ دخول لملتقى الإخوان المسلمين (وكان هذا ولا يزال موقعي المفضّل قبل معرفتي طريق فيس سي مارك) فقرأتُ موضوعًا لإحدى الأخوات تتحدث عن أن الجماد (يسبّح بحمد الله) مستشهدةً بذلك بقول الحق تبارك وتعالى:

{..وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..} كان حديث الأخت عذبًا رقيقًا تخبرنا فيه عن استشعار تسبيح ما حولنا

من جمادات، ثم عرّجت فيها ـ مازحةً أو جادّة ـ على آنية المطبخ؛ قائلة (ماترميش الطباق والحلل في الحوض كده، بالراحة عليهم، دول بيسبحوا)! أو كما قالت.

صراحةً لم يعنني وقتها قصدها في عبارتها الأخيرة هل كانت تمزح أم لا، لكنني قررتُ وقتها وقلتُ أجرّب!

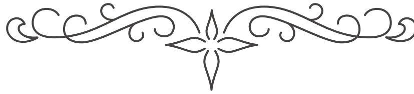
دخلتُ بعدها مطبخنا، بدأتُ أتعامل مع الجمادات فيه كـ (مسبّح)، إن سقط شيءٌ على الأرض تناولته برفق، أكرمتُه قدر الإمكان، بل وخطر على بالي الآن وأنا أكلمك أنه كيف أبقي على بقايا الأطعمة فيه يتأذّى من رائحتها إن تغيّرت؟ فتسبيح الله يجب أن يخرج من طاهر!

بل وأكثر من ذلك أنني لمّا سمعت ما نُسب للحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الأذان «لا يَسْمَعُهُ إِنْسٌ وَلا جِنٌّ وَلا حَجَرٌ وَلا شَجَرٌ إلا شَهِدَ لَهُ»؛ أمسيتُ أتخذ من ذلك منهاجًا؛ أنظر لأي جماد حولي وأقول له: أشهدك أنني أشهد أن لا إله إلا الله..

قد يكون في كلامي خيالٌ أكثر ما فيه من واقع، وقد يكون فيه نوعٌ من (الدروشة)؛ لكنني- صدقًا- لاحظتُ شيئًا غريبًا؛ أنه في الحالة التي أدخل فيها المطبخ متعكرة المزاج حادّة الطبع (أخبط وأرزع) آخذ وقتًا كبيرًا إلى أن أصل لما أريد، تسقط الأشياء منّي، تختفي من أمامي وهي موجودة وكأن بصري قد عمي عنها ناهيك عن طعم الأكل نفسه لا يروق لأحد وأولهم أنا!.

بينما إذا دخلته هادئة النفس، راقية التعامل مع ما سخّره الله لي، مبتسمة، غير ناكرة الجميل لحلّة جدي الموروثة من جيل لجيل لجيل؛ أجد كل شيء ميسّرًا أمامي، لا أنفق وقتًا كبيرًا في البحث، يكاد الوعاء الذي أبحث عنه يقول لي: أنا أهو!.

إذًا هي ليستْ دعوة للزوجات أو للفتيات بأن يذهبن للمطبخ يكلّمن أنفسهن.. يدخل عليهنّ أزواجهنّ قائلين: منك لله يا مروة جننتِ البنت!، بل هي دعوةٌ لكِ أيتها الحبيبة الراقية أن تستشعري جمال الكون في أدق تفاصيله، مع إيماننا المسبق طبعًا بأنكِ أجمل تفصيلة فيه.



(٢٨)

كنتُ ـ في صغري ـ إذا طلبتُ من والدي ـ بارك الله فيه ـ شيئًا قال لي: لّما ربنا يريد..

يتكرر طلبي، يتكرر ردّه، يتكرر يقيني أن كلمة (لما ربنا يريد) تعني أن ما أتمنى لن يحدث!

بعض الآباء والأمهات يمارسون نفس الخطأ هذه الأيام.

ـ ماما، أنا عايزه كذا.

ـ إن شاء الله يا حبيبتي.

حيث أن ماما تنوي بقولها عدم تحقيق مراد طفلتها..

أتساءل في الحقيقة؛ لماذا نُلصق باسم الله الأعظم ما لا يليق به؟!

لماذا نزرع في نفوس أبنائنا أن الشيء المستحيل تكمن استحالته في (مشيئة الله)؟!

أتعرفون..

لما اعتدتُ من أبي تكرار هذه الكلمة وعرفت بالخبرة أن الشيء المنوط بها لن يتحقق كنت أقول له ببكاء طفلة:

– لا يا ابويا، مش لما ربنا يريد.. قول هعملها مش تقول لما ربنا يريد!

كونوا أكثر صراحةً مع أبنائكم!

كونوا أكثر تحمّلًا لمسؤولية الدين عن هذا بل كونوا أيضًا أكثر جرأة على الاعتراف بضياع حقيقة الدين على أيدينا!

عندما يسألك/كِ طفلك أو طفلتك عن سبب ضعف المسلمين، وعن سبب احتلال فلسطين، وعن سبب اعتقال أقاربهم أو إعدامهم على أيدي السفّاحين والقتلة مثل السيسي والمجرم بشار، عندما يسألونكم؛ لا تقولوا: إنها إرادة الله وسنّة الكون، والأيام دول، وأن قدر الله نافذ، وأن النبي نفسه تعرض للأذى وحسب!

كونوا أمناء ولا تجتزئوا الدين من سياقه، بل قولوا: إنها إرادة الله قبل كل شيء لكننا قصّرنا وهي سنّة الكون أن مَن يأخذ بالأسباب ينتصر.

وأن الأيام (المفروض أنها دول) لكننا نعاني منذ مئات السنين بسبب بعدنا عن الله، وأن النبي صلى الله عليه وسلم تعرض للأذى في بداية دعوته لكن لما انتشر الإسلام واشتدّت شوكته رسّخ الحبيب قواعد الأمة من مسجد ومؤاخاة ومعاهدة، فأضعنا جوهر المسجد ومزّقنا أواصر الأخوّة واحتكمنا لمعاهدات ودساتير الكفّار!

في حديث لا أذكر نصّه لكن ما معناه (حدّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله)؟!

قد يكون الاستشهاد به بعيدًا، لكن بالفعل حدّثوا أبناءكم عن حكمة الله ونصره لمن يأخذ بأسباب النصر، وأن الحياة الطيبة هي جزاء من آمن بالله ورسوله وليس فقط الآخرة، أتريدون أن تهتز ثقة أبنائكم بدين الله ورسوله؟!

(٢٩)

رقيقة الحال، متواضعة الملبس والمأكل والمشرب والتعليم، حظّها من الدنيا قليل، تزوّجت زيجةً أقل بكثير من العادية، أنجبت خمس فتياتٍ تقريبًا، قمرات، بعيونهنّ جمال، وبآذان بعضهنّ صمم!

(مهمة) أو شيء قريبٌ مِن هذا، تسمعه من (بسمة) عندما تسألها عن اسمها، الفتاة ذكيّة، تفهم إشاراتك جيدًا، حتى سخريتك ـ إن سخرتَ منها ـ تفهمها!

رقيقة الحال، متواضعة الملبس والمأكل والمشرب والتعليم، أمّ الفتيات المريضات، تشفق عليها!

هل قلتُ عليها؟!

أعتذر وأستدرك، بل تشفق على حالك عندما تسمع منها كلامها ورضاها عن عطايا ربّها..

جاءت لي صباح اليوم تسلّم عليّ:

ـ روميه..

ـ أهلًا أهلًا، تفضلي يا أم بسمة.

ـ عاملة إيه يا جميل؟

تلفّت عن مكان أستضيفها فيه؛ فلم أفلح (وكنت قد أخرجت فراش

المنزل ومقاعده لفناء المنزل استعدادًا لغسلها لقدوم العيد) فقلتُ لها في أسفٍ وجهد عملٍ اتضح على ملامحي لاحظته هي، وببسمة اقتبستُها من وجهها:

ـ اممم تقعدي فين؟ الدنيا ملخبطة، عيد بقى كل سنة وانت طيبة.

ثم كان ردّها الذي أرسلها الله تعالى لي لأجله.. لأجله وحسب:

ـ والله يا أبلة مروة ما بعترف بعيد! شوفي، اللي مش يحترم ربنا بعد العيد وطول العمر؛ مش بيحترمه يوم العيد! (تقصد عبادة الله الموسمية) إنما أمسك السبحة طول كده في رمضان وآجي بعد العيد أنسى ربنا؟! وبعدين هجولك حاجة، اليوم اللي تجومي م النوم تلاجي نفسك في صحة هو دِه يوم عيد والله يا بنتي أني كل يوم في عيد! اتعوّدت على كده، ومش عارفة أني كده صح واللّا إيه؟ وعوّدت بناتي على كده.

انتهى درس الرضا من أم بسمة.

بالمناسبة، ستكون جدّة عمّا قريب، فقد زوّجتْ بسمة (البكماء) من رجل صحيح يحبها، وأميرة التي تصغرها، وخُطبت شيرين، وهبة (البكماء الأخرى) على وشك خطوبة.. زوجتهنّ (من مفيش)!.

لعلك عرفتَ العلّة؟

عرفتَ فالزم!

(٣٠)

ذات ليلة ـ وكانت الساعة توشك على الواحدة صباحًا ـ سمعتُ صوتًا خفيًّا يصدر من إحدى غرفات بيتنا، غرفةٌ نطلق عليها (بير السلّم)؛ حيث إن بها دَرَجًا يوصلك لسطح المنزل، تكرر الصوت!

هو ليس صوتًا لآدميّ، وإنما صوت ارتطام أشياء ببعضها، وكأن الآدمي يفتّش عن شيءٍ ما!

حرامي!!

قلتُها في نفسي متوجّسة.. إنه لصّ!

أوجستُ في نفسي خيفة غيّرتُ مسار خطواتي آيبةً إلى غرفتي وأختي مرة أخرى. أيقظتُها:

ـ إيه يا مروة في إيه؟!

ـ اصحي؛ البيت فيه حرامي!

ـ حرامي؟!!

ـ أيوه والله سمعت صوت طالع من بير السلم، قاعد يخبط في الحاجات أهو.. حتى تعالي اسمعي!

قامت معي على مضض فهي عاشقةٌ للنوم.. (تسَحّبنا بالرااااحة) ويكأننا نحن اللصوص!

اقتربنا من الباب، كبرت آذاننا فجأة وضعت كلٌّ واحدةٍ منّا أذنها الكبيرة على جزءٍ من الباب:

ـ إيه ده! ده فعلًا حرامي!

ـ مش قلت لك!

ـ طب هنعمل إيه، هنصحّي أبوكي؟

ـ لا أبويا لا. هيتخض حرام عليكي.

ولا أعلم لماذا أشفقتُ على أبي من اليقظة حينها؟

التفتُّ إليها بحماسة وقوة شكيمة ورباطة جأش قائلة لها:

ـ بصّي

ـ إيه؟

ـ إنت هتمسكي المقشة دي (وكانت مقشّتنا آنذاك من قنوانٍ دانية)، وأنا همسك العصاية. هنفتح مرة واحدة أول ما يبص لنا هنخبطه على طول!

من الجدير بالذكر أنني كنت أتابع مع أختي الكبرى هذه برنامج (نادي السينما)؛ حيث الأفلام (الأكشن)!

أقنعتُها بذلك وجعلتُ السّكّينة في مقدّمة الخيارات إذا لَزِم الأمر!

أمسكت كلٌّ منّا بسلاحها.. كنتُ الأصغر لكنني ـ بطبيعة ما عُرف عنّي زيفًا ـ الأجرأ!

ششششش.. (طبعًا لن تفهموا ما بين قوسين؛ لأنه كان بصوتٍ خافتٍ جدًّا وإن كتبته لن تسمعوه، المهم كان في كلام يعني)!

ـ تعالي كده.. أيوه. (شهيق عميق) وفجأة.. افتح الباب!!

لصٌّ جريء!

ما عرفتُه من خلال متابعتي لنادي السينما أنه يتوجّب على هذا اللص أن يحاول الهرب (وأنا همسكه أخلص عليه)!

- اللص واقف أمامنا!

- إيه يا حاج مابتسمعش أفلام واللا إيه؟!!

- طب اجري!

يبدو أن ملامحي وغضبي المتأجج وأوداجي المنتفخة كانت من القوة بمكان حتى أنه فقد القدرة حتى على التفكير!

لكن شيء غريب!، اللص يشبه أبي إلى حدٍّ كبير! طوله حجمه ملامحه.. ده حتى نفس نبرة صوته!

ـ إيه يا بت انتي وهي اتهبلتوا واللا إيه؟!

كان هذا سؤالًا موجّهًا لنا من اللص عفوًا.. من أبي!

كصوت فرخ عصفور ولدتْ لتوّها رددتُ عليه:

ـ لا يا ابويا مفيش حاجة!

تعلمتُ وقتها درسًا قويًّا أن الغيْرة والحماسة ـ دون جمع معلومات كافية وتروٍّي ـ وحدها لا تكفي!

حضرات السادة (الحِمشين) من كل الجهات الثورية، كونوا أكثر تأنيًا في الحُكم على مَن يستمسك ـ أو على الأقل يحاول التمسك ـ بحبل الله المتين.

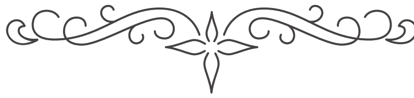
كُن أكثر إلمامًا بزمام أمرك عن ذاك!

استوثق أكثر من معلوماتك قبل إصدار أحكامك على أخيك.

يا أخاه كُن أكثر صبرًا على تحمّسه فما تحمّس إلا حِمية للدين!

ليس (الفالح) في أيامنا الضبابية هذه مَن يُصدر الأحكام ويلوك الشتائم، بل والله وتالله.. ما وجدتُ دواءً لنا أشفى مِن سؤال الله تعالى الثبات!

يا نحن، حنانيكم بنا؛ فالدين يُسرق والوطن يُسرق ولَسنا اللصوص!



(٣١)

وكيلةُ المدرسة!

إشاعةٌ مُغرضة أطلقها عليّ مَن يزعمون أنهم يريدون مصلحتي!

إشاعةٌ لم تنطلِ عليّ يومًا؛ فما خُلقتُ إلا لأعترض، والوكالة والنظارة وما يشابههما من المناصب هي ـ في نظري المتواضع ـ مساومة مزعجة للثائرين على الكراسي.

سيادة الوكيلة حاولتْ جاهدة أن تتقمص الدور لعل وعسى!

بعد قليلٍ سترى سيادتُها قمرًا أخطأ مساره في الأهلّة فنزل على الأرض.. يوسفٍ!

تتركه أمّه لدقائق وما تدري أن الوكيلة المزعومة تشتهي أكل حبّات الفاكهة الطازجة!

وما تدري المسكينة أن وكيلة المدرسة تتحول لكائن غريب يلتهم فراخ عصافير الزينة التهامًا!

فقط هي كلمة واحدة منّي للؤلؤتي المسمّاة بيوسف.

يوسووف..!

ينظر إليّ، أضع طرف ملحفتي على وجهي، أتحول لمفتح صول أصدر كل الأصوات في آن. يقترب الصغير يضع يده على مصدر الصوت بأنامله يكاد يحرّك ملحفتي ثم يفاجأ بملامح يطلقون عليها في عالم السيرك

(البلياتشو)!، يبدو لي أن الكون شعر بنشوتي فتكاتف معي. عمودٌ في وسط فناء المدرسة ما شعرتُ بأهميته إلا اليوم!

ـ يااااه قلتوا لي بأه هو معمول لكده؟ اممم ممتاز!

أهرول حول العمود، أختبئ خلفه، يراقبني الصغير، يضحك، يهرول خلفي خطواته الصغيرة المتلاحقة تقطع بالكاد نصف خطوة من وكيلة المدرسة.

تتذكر الوكيلة الآن أغنيتها المفضلة عن عقارب الساعة التي يرددها العقارب الثلاثة: الساعات ثم الدقائق ثم الثواني.

عقرب الساعات: النطّة الواحدة منّي.

عقرب الدقائق: بستين نطة مني.

عقرب الدقائق: والنطة الواحدة مني.

عقرب الثواني: بستين نطة مني.

ثم تنقلب الأدوار؛ فيقول عقرب الثواني: والستين نطة مني.

عقرب الدقائق: بنطة واحدة مني.

عقرب الدقائق: والستين نطة مني.

عقرب الساعات: بنطة واحدة مني.

ياالله يا يوسف!

يا أخي تبًّا لوكالة تلهو عنك!

وتبًّا لشهادات تنالها الأنثى إن هي تعارضت مع شهادة وردية اللون أو زهرية اللون تتابع فيها تطعيمات أطفالها!

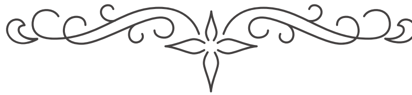
وتبًّا ثم تبًّا ثم تبًّا، لمجتمع يرى أنه من (الثقافة) أن تتأخر الأنثى في زواجها وأنه من(الجهل) أن يبكر والدها بتزويجها لصاحب خلق ودين!

يوسف.. ابتسم لهنّ في الصورة.. نعم نعم.. هكذا.

اثبت كما أنت بخطواتك الصغيرة خلفي، أرسل لهنّ رسالة مفادها..

لا تغرنّكم أحرف(حقوق المرأة)؛ فإسلامكنّ كفيلٌ بها وتراب يخطو عليه زوجٌ صالح هو الصعيد الطيّب لو تعلمين.

يمّمي فؤادكِ به.. وولّي قلبَكِ شطر قلبه!



(٣٢)

يوسف ورغد..

طفلٌ وطفلة يضفيان على يومي مسحةً من البهجة مهما كان مهمومًا..!

أمهما زميلةٌ لي في العمل.. ما إن أراهما بصحبتها في صباح اليوم المدرسي حتى ترتسم على وجهي ابتسامة تتناسب تمامًا مع حجمهما وحبهما للحياة.. ولي!

يبتسمان لي في إشارةٍ سريّة لبدء اللعب معهما. أترك ما بيدي وأتحوّل من مُدرّسة حازمةٍ كنتُ أوجع الطلَبَةَ أصحاب الشوارب ضربًا بالكلمات لتوّي إلى طفلةٍ ثالثةٍ أركض متعثّرة في ملحفتي خلف هذين القمرين اللذين سقطا لتوّهما من السماء على فناء المدرسة!!

أفهم تمامًا كم أنا متيّمةٌ بالأطفال لكنني لا أفهم أبدًا ما السرّ في أن أخاطب الطفل والطفلة، الذكر والأنثى، بعكس ما يقتضي الحال!

يعني مثلًا أقول للطفل الذكر (كُلي الشيكولاته دي خُدي هاتي العبي معايا إنت اسمك إيه) وأخاطب الطفلة الأنثى (كُل دي خُد العب معايا إنتَ اسمك إيه) في حالةٍ متطابقةٍ تمامًا لماري منيب عندما كانت تسأل أحدهم (إنتِ تشتغلي إيه)؟!!

في الحقيقة لم أفلح أبدًا في فهم ماهيّة مرادي من هذه المخاطبة المعكوسة والتي تتعدّى الحدود أحيانًا حينما أخاطب الطالبات عندي والمتفوقات

منهنّ خصّيصًا (أحسن يا رجالة برافو ممتاز يا شباب.. وهكذا)!! (وبالمناسبة هذه نقطة أنصح مَن يستغرب حِلمي لحمل السلاح بأن يتكّئ عليها عند مناقشتي في هذا الأمر تحديدًا)

ومن حبّي ليوسف ورغد أحببتُ أن (أطوّر) من أسلوب لعبي معهما؛ فأخذتُ أداعب يوسف (رَغَد.. إنت لابسة لبس يوسف؟ وقصيتي شعرك.. إيه ده؟) ثم أتّجه لرغد قائلة (وانت يا يوسف لبست لبس رغد وحطيت توكة في شعرك زيها ولابس جزمتها كمان؟!) فيقهقها وأقهقه معهما. لا يقطع ذلك إلا صوت أمهما (يلا علشان تطلعوا فوق للحضانة) مشيرةً عليّ بامتهان مهنة مدرّسة في الحضانة؛ فإنها الأنسب لي كما ترى وكما أوقن أنا.

ومنذ أيام، وبعدما تكررت منّي هذه اللعبة الغريبة؛ جاءت إليّ أمهما ضاحكةً وهي تقول (الله يسامحك.. الواد يوسف لما روّحنا امبارح لقيته راح على لبس رغد ولبس فستان وقعد يقول أنا رغد مش يوسف)!

ضحكتْ أمهما وهي تحكي لي لكنّ الخبر نزل عليّ كالصاعقة؛ مما جعلني أكفّ عن هذه اللعبة السخيفة؛ لأرى يوسفَ بعدها وأقول له مؤكدة (إنت يوسف ورغد بنوتة مش ولد) فصاح هو الآخر مؤكّدًا (أيوه.. أنا يوسف مش رغد)!

تأكّد الآن ليوسف ورغد أنها كانت مجرد مزحة سيتوقّف يوسف بكل تأكيد عن وضع كلتا يديه فوق رأسه؛ ليتأكد هل هناك (توكة) تجعلني

أصرّ على ادّعائي أو لا. كما كان يفعل سابقًا!

ستكفّ رغد هي الأخرى عن النظر لحذائها الورديّ الجميل؛ للتأكد أنه حذاء (بنوتة) وليس حذاء ولد!

سأكفّ أنا عن السخافة التي لو كنتُ تماديتُ فيها؛ لأخذَ الأمر منحًى لم أكن أدرك خطورته من قبل، لكن..

لكن متى يكفّ الآخرون عن تشكيكنا في ديننا، عروبتنا، مصريتنا، انتمائنا لهذا الدين والأمة والوطن؟!

متى يكفّ المجرمون عن نسبة كل ما نقوم به لإرهابٍ أو سفسطةٍ أو تخلّف أو رجعية؟

ومتى يكفّ المغفّلون منّا عن الاستجابة لزعم هؤلاء ولو بسؤالٍ خفيٍّ بينه وبين نفسه؟

إن كان يوسف (يحسّس) على شعره؛ ليرى إن كان شعر فتاةٍ أو فتى حسب طوله ليتأكد مما تم النجاح في زعزعته من قرارة نفسه، فإن هناك يوسفيّون ما يزالون يحسّسون على معتقداتهم وعقيدتهم وطريقهم وثورتهم بل وقلبهم ليتأكّدوا إن كانوا على الحق أم لا!!

لهؤلاء الحيارى أقول.. كونوا أوثق من ذلك بربكم ودربكم!

واعلموا أنني كنتُ أمينة مع يوسف حين أخبرته بحقيقة الأمر، وأنها كانت مجرد مزحة ساذجة، في حين أن من يحاولون زعزعتكم من داخل داخلكم لن يكونوا أمناء أبدًا على إخباركم بحقيقة الأمور!!

(٣٣)

بيديها الصغيرتين تحيط صوان الأذن ثم تهمس همسًا.. معظمه زفير فيختلط عليك جمال الهمس مع زفرتها تقول:

- رومه عايزه هدية.

ثم توضح:

- عروسة لها عربية ومشط وسرير ومطبخ!

أهزّ رأسي إذعانًا لأمرها وأقول في نفسي: سبحان من جبل المرأة على حب الصغار!

أحبها وتحب هي عروسة المستقبل!!

وكما تعلم (بسنت) هانم الشرط المسبق والصداق المسمى بيننا، فمقابل الهدية قرآن.

أهمس لها هنحفظ من (النبأ) فتوافق مضطرة..!

جلست بجواري على أحد المقاعد المسماة بالأعجمية (أنتريه) تحسب أنها ستأسرني بابتسامتها..

في الحقيقة أسرتني!

لكنني لم أبين لها ذلك بل قلتُ بقوة الكبار المهتزة في حضرة صغارهم:

- لاااااا.. أنا معلّمة وأنت طالبة علم.

ـ أنت ماذا؟

ـ تالبة حلم!

ـ أنا أجلس هنا وأنت تتمجلسي تحت!

- أنت ماذا؟

ـ أتمزلش تحت!

سامحني الله.. نسيت النبأ ونسيت نفسي وتحولتُ إلى فيهٍ يضحك!!

ثم عقدت اتفاقًا مع نفسي ألّا أبين لها الصواب.. فقد أعجبتني الكلمة!

قلت لها: تمزلشي!

فتمزلشت!

تكونت عند الصغيرة أحرف الكلمة وتشكلت وأضيف إلى قاموسها اللغوي الصغير كلمة جديدة قالتها رومه.. منبع الثقة عندها:

- أتمزلش يعني اقعد!

فصارت إذا قال لها قائل: تمزلشي، جلست!

تُرى.. كم بسنتٍ قيل له عكس الصواب فصدّق؟!

كثيرٌ هم مَن يثقوا في كثير!

شبابٌ في قادة

وصفٌّ في قيادات

ورعيّةٌ في حاكمها

ألا فليتقِ الله مَن كان أهلًا للثقة!

ألا فليتقِ الله مَن كان أهلًا للثقة!

ألا فليتقِ الله مَن كان أهلًا للثقة!

(٣٤)

وفي ردهة المسكن لمحتُه فلم يرتد إليّ طرفي،

شخصتُ.. ولم أغضّ البصر!

يقف في مكانه بشموخ!

منصوب القامة.. غرورُه حلو!

كَم تمنيتُ أن يكون عندي فَرَسٌ مثله..

يقولون إنه يحب السكّر، ليس معي سكّر.. أتقنع منّي بحبّة (بونبون)؟!

اقتربتُ منه، نظرتُ بابتسامةٍ خجلى، لم يحرّك ساكنًا..

موافق إذًا؟

للحظة أمسيتُ فارسة!

يالها من لحظة رائعة!

جميلٌ أن تمتطي جوادًا والأجمل منه ألا تكون لك كبوة!

على فرسي هذا كنت مطمئنة لن يسرع بي الخُطى إلا بمقدار ما أريد.

عشتُ اللحظة ثم نزلتُ من على ظهره مُسرعة؛ خشية أن تراني عاملةُ الحضانة التي أخرجته لإجراء بعض أعمال النظافة بها!

كنتُ طفلة لبعض اللحظات.. كنتُها.

مَن لي بلحظاتٍ كثيرة كتلك اللحظة؟!

آهٍ لو كانت أعمارنا في زجاجة نرتشف منها بقدر حاجتنا إليها!

(٣٥)

اللهم اكْفنا شر عترات (عثرات) الطريج (الطريق)..

قالتها بهذه الطريقة.. ستّينية شغلت المقعد المجاور لي في شاحنة أقلّتني للعمل.

وكأن الله استجاب دعاءها، فما تعرّضت لعثرة في (طريجها) قط!

تعطي للسائق خمسة جنيهات قائلة:

- خُد والنبي يابني هات عيش للدكتور. (ابنها الذي تسافر إليه في محافظة أخرى) والنبي يا شيخ تجيبو سخن، ومستوي وحِلِو كده.

يأخذ السائق الجنيهات الخمسة ويقف على جانب الطريق مناديًا على أحد عمّال المخبز الذي صادفناه (خُد هات عيش حلو ويكون سخن، ومستوي كده)

ترى العجوز مطعمًا مجاورًا للمخبز فتنادي أحدهم:

- خُد هات بجنيه طعمية تعالى خد.. إخلص!

فيحمل لها الرجل قرطاسًا معبّئًا بحبات الطعمية الشهية ثم يجامل السائق فلا يأخذ حق الطعمية. تفرح العجوز وتقول (رزج عيال الدكتور)!

تتصل:

– إنت فين يا دكتور؟ طيب يابا هستناك في المحطة معايا رُز تجيل مش تخليني أمشي كَتير!

أغوص أنا مرة في عالمها ومرة في عالم الرافعي الذي شغلتُ طريقي بقراءة حياته.

أنتبه فجأة للمكان الذي يتحتّم عليّ النزول فيه..

ـ دوران من فضلك.

يتوقف السائق مكاني خلف مقعد السائق مباشرة بجوار النافذة. العجوز تجاورني، يطلب منها الجميع الطلب ذاته:

– انزلي يا حاجة عشان الأبلة تنزل، انزلي وبعد ما تنزل اركبي تاني. يا حاجة انزلي عشان تنزل.

تنظر لي وعلامات استصعاب المهمَّة على وجهها ثم تطلب مني بمنتهى البساطة أن (أجزح)= قزح يقزح قزحًا فهو يقفز بالفصحى أو ينطّ بالعامّية.

أستغرب طلبها الذي أحرجني أمام الركّاب ثم أتذكّر دعاءها في بداية الطريق..

(اللهم اكفنا شر عترات الطريج) فلا أحب أن أكون العترة الوحيدة التي قابلتها في طريقها.

تكرر العجوز طلبها:

– انتي صبيّة اجزحي.

فأجزح!

(٣٦)

أتذكّرُ جيّدًا ذلك اليوم الذي تمنّت أمّي فيه شربة ماء باردة في قيظ الصيف، فأخذتُ كوبنا (الألومنيوم) العتيق الأكبر منّي سنًّا على ما يبدو، وذهبتُ به لإحدى جاراتنا لتملأه لي من مائها البارد؛ حيث (الثلاجة) التي لم نكن نمتلكها بعد!!

أتذكّر جيّدًا ذلك اليوم الذي نظرتُ فيه لابنة عمّي الواقفة في نافذة بيتها المرتفع. وتعجّبتُ ـ وكنتُ حينها لا أميّز الأسباب ـ لماذا تعلوني هي بينما أقترب أنا وبيتنا من الأرض؟!

أتذكّر جيّدًا ذلك اليوم الذي صحوتُ على يدين مرتعشتين وملابسَ مبللة تحاول جاهدةً حمايتي من نقاطٍ تتساقط عليّ أثناء نومي من سقف حجرتنا، فإذا بها يد أبي الذي صعد لتوّه فوق سطح بيتنا الآيل للسقوط وقد فرش مشمّعًا بلاستيكيًّا في محاولةٍ بئيسةٍ لمنع قطرات المطر من الوصول إلينا!

أذكر أنني ظللتُ لسنواتٍ عدّة أعتقد أن لون ماء المطر عسليّ ولم أكن أعلم أن هذا الماء الذي أراه في الأواني المتعددة التي قامت أمّي برصّها في أرض الغرفة، لم أكن أعلم أن الماء الذي بها قد تلوّن بسبب اختلاطه بترابٍ عَلَى الـ (بوص) الملقّم ببعض الأسمنت المتهدّم فوقنا!!

كان صوت الماء في الآنية يسعدني أتخيله (بيانو) بينما لا أدرك صوتًا قادمًا من قلبين مرتجفين أنين أبي وأمّي!!

أتذكّر جيّدًا تلكم الكنبات الثلاث ذوات الفراش المهترئ والحصيرة البلاستيكية التي عفى عليها الزمن والأرض الرملية المكنوسة بقنوٍ من النخل المرطّبة ببعض الماء الذي (رشتُه) لتوّي استعدادًا للعيد!

أتذكّر جيّدًا أصبع زميلتي المزيّن بخاتم ذهبيّ أهداه لها والدها لنجاحها، بينما كنتُ أخبّئ على أبي ذلك الشعور الذي يتملّكني بالتوق لارتداء خاتم يشبهه، فكنتُ أكتفي بإمساك قلم جاف لأرسم به خاتمًا على سبّابتي أحسن من خاتم هذه المغرورة.. بل خاتمين!!

أتذكّر جيّدًا تلك الحقيبة التي كنتُ أرثها من أختى الكبرى عامًا بعد عام بينما أسجّل إعجابي الصامت المكتوم عنوة بحقيبة زميلتي المواكبة للموضة حينها عامًا بعد عام!!

أتذكّر جيّدًا تلك الدقائق التي كنتُ أنفقها مضطرة؛ لأنتظر كابينة أحد الهواتف لتفرغ من شاغلها لأتّجه بعده أضرب عدّة أرقام أسمع بعدها صوت والديّ بنفس أنينهما حين تساقطت حبّات المطر مختلطًا ببعض الحنين!!

أتذكّر جيّدًا ذلك اليوم الذي كنتُ (أمرّن) نفسي فيه على نطق (لاب توب) وأتأكد هل هو لاب توب أم توب لاب حتى لا أتعرض لسخرية إحداهنّ من نطقي المتعثّر لاسم شيءٍ أجهل كينونته!

تبدّلت الأمكنةُ والأزمنةُ والظروف وارتفع بيتُنا ليكون أعلى من بيت عمّي ليعلوه طابقٌ آخر، يحوطه سورٌ كبير له بابان أحدهما أماميّ والآخر

خلفيّ وفي جهته الأمامية شجيرات الورد والمانجو والنعناع والريحان والمانجو، يتوسطه سُلّمٌ بسياج حديديّ أنيق تعلوه من الجهتين قصريّتان من الفخّار تتوسطهما بعضُ النبتات ذات الرائحة الجميلة على يسارك ما يُشبه جلسة الأعاجم (أنتريه) أزرق اللون تتوسطه منضدة تعلوها مزهريةٌ بها بعض الوردات التي أتفنن في تنسيقها.

أمامك (صالة) البيت المليئة بأنتريه آخر خلفه ساعة حائط تشير لتَقدُّم عمرك، تراها من خلف ستارةٍ أنيقةٍ من أجود أنواع القماش تدلّ على رفعة ذوق من ابتاعها وثقل جيبه!

على يسارك مطبخٌ تقف فيه بشموخ ثلاجةٌ لها بابان بجوارها (ديب فريزر)؛ حيث لا كوب من الألومنيوم ولا تلهّفٍ على ماء بارد ولا جارة ترضى حينًا وتسخط أحيانًا!

يتوسط الصالةَ بابٌ ما إن تدخله حتى تجد دولابًا خشبيًّا صغيرًا به عُلبةٌ أنيقةٌ تفتحها لتجد بداخلها قرطين وأسورة وعُقدًا وثلاثة خواتم كلها من الذهب الخالص بعدما أبقيتُها حتى لا تُزاحم خاتم رابعة الذي يرافق سبّابتي ولا أرسم بجواره خاتمًا آخرَ مهما كثُرت حولي الأقلام الجاف!!

أكتب إليك الآن من حاسوبي الجديد الذي تعدّى الأربعة آلاف من الجنيهات وبجواري جوالي ذو الألفين من الجنيهات اللذين يحتويان على كل الـ (أوبشنز) التي أحتاجها وحتى تلك التي لم أعرف ـ من كثرتها ـ متى وكيف أستعملها!!

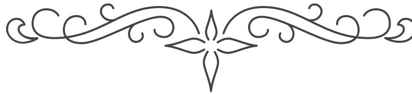
اليوم تساقطت حبّات المطر لأجدها صافية وليست عسليّة اللون كما كنت أظن!

اليوم بيتُنا خالٍ من ساكنيه.. اللهم إلا نفس اليدين المرتعشتين لكبيرين في السن، لا رعشةٌ من مطر ولا مفرشٌ بلاستيكي ولكن من تجاعيد خطّها الزمن وهـمُّه بمنتهى الدقّة والحرفية عليها!

اليوم تساقطت حبّات المطر فتساقطت معها دمعاتٌ خاليةٌ من الدمع تتمنّى.. أن يارب حقق لي كذا وكذا.

يارب عجّل بكذا؛ فإذا بطارقٍ يطرق جدار الفؤاد برفق ويقول بلُطف:

- مَن حقق لكِ أمنيات الماضي.. قادرٌ على تحقيق أمنيات حاضركِ ومستقبلك.



(٣٧)

أقلّتني الشاحنة في مقعد خلفيٍّ كنت هنالك.. بجوار زجاج نافذة تسمح للناظر من خلالها بمشاهدة مشاهد عاديّة!

صوّرني يابني،

شعرك واقف إزاي!،

هحلقه النهارده،

الأجرة واحد م الخمسة؟

على جنب ياسطى،

أوكّا وأورتيجا..

عباراتٌ متكررة من صورٍ مختلفة على هيئة أجساد.. يبدو أن معظمهم شباب في المرحلة الإعداديةً؛ إلا أنهم كانوا عائدين (هاربين) من المدرسة!

- ده الآخر؟

ـ أيوه.

كان سؤال منّي وإجابة من أي أحد!

عبرتُ الشارع منه إلى عربةٍ أخرى.

- المستقبل فين لو سمحت؟

ـ آخر عربية.

ـ المستقبل دي؟

ـ إن شاء الله.

وبجوار نفس النافذة بنفس زجاجها المغبّر؛ جلستُ حيث مقعدي المفضّل في أي شاحنة وانطلقنا.. حيث المستقبل!

طرقٌ ملتوية.. كأفعى كبيرة تبحث عن ضحيةٍ تلتهمها!

وتفرّعات جانبية.. كأولاد الأفعى حين يتعلمون لتوّهم الهجوم على المغدور به!

مياه ملوّثة من منابع ذات رائحة كريهة كبركةٍ تغرق فيها بغض النظر عن إجادتك للسباحة!

أكوامٌ من القمامة بجوارها أكوام من البشر تحتار في الساكن الحقيقيّ للبلدة والدخيل!

تعلو القمامة.. ترتفع.. تفوح رائحتها يصغر البشر.. يتناهوْن لأشكالٍ متابينةٍ خطّتها يد الزمن لتوّها على سطح الأرض.

رسماتٌ مختلفة.. ولونٌ واحد.. أسود قاتم يحاول بعض البياض أن يعتليه كذبًا!!

على جنب ياسطى. يتوقف.. يفرّغ بعض الأجسام المتراصّة كأجود أنواع السردين بجواري. يهمّ بالسير مرة أخرى. هنا لو سمحت، يعاود الكرَّة، أشعر بنشوةٍ حقيقيةٍ إذ يتّسع المكان لي ويفسح مجال الرؤية حيّزًا آخر من التفكير!

كمال+ دينا = الحبّ الأبدي.

عبارةٌ كُتبت بخطّ متعرّج يدل على صِغر سن من خطّه وشُحّ تعليمه!

كمال.. دينا.. حب أبدي.

كمال.. دينا.. حب أبدي.

كمال...دينا.. حب أبدي.

أخذت العبارة تتردد بداخلي..

مَن كمال؟ لا أعرف.

مَن دينا؟ لا أعرف.

ما الحب الأبدي؟

أأأ أعرف.. لا لا.. لا أعرف!

لا السائق، ولا الركّاب، ولا المارّة، ولا حتى أنا نعرف دينا وكمال.

لا نعرف أيضًا هل دام حبّهما أم انقطع؟

لا نعرف إن كانا يعرفان أصلًا ما معنى الحب الأبدي أم لا؟

لكننا نعرف أن كمال كان من الجرأة ما جعله يصعد على هذا السورِ ممسكًا بجزءٍ كبيرٍ من الطباشير يثق في ثبات قدميه على حافّة السور يثقَ كذلك في معرفتهِ لبعض الأحرف على الأقل كاف وميم وألف ولام ودال وياء ونون وألف أخرى!

يعرف أن علامة زائد تساوي جمعًا وأن شرطتين تعلو إحداهما الأخرى تعني تقبّلك حتماً لنتيجةٍ محسومة.

عباراتٌ.. طُرُق.. أفعى.. شاحنة.. غُرباء.. مقعد.. مشهدٌ متكررٌ في حياة من لا حياة له؛ غير أنه لا مستقبل يُشار لك عليه ولا سور تقف أعلاه ثابتًا ولا جُرأة كجرأة كمال تمكّنك من الإعلان أمام الناس ـ كل الناس ـ أنك + هو = الحب الأبدي!

(٣٨)

جميلةٌ هي تلكم اللحظة التي أتناول فيها حبّةً من فاكهة الجوافة الدانية من شجيرتنا العتيقة الواقفة بشموخٍ يتضاءل في إحدى زوايا فناء بيتنا.

جمال اللحظة لا يتلخّص في مجرد تناول حبّةٍ أسيرةٍ بين يديّ مستسلمةً للثنايا المنقضّةِ عليها من كل اتجاه، ولا حتّى في الأحاسيس المختلفة التي تنتاب المنقضَّ حينما يمرّ بمرحلتين مختلفتين متزامنتين أو متواليتين من التهام الجزء الأملس من الجوافة ثم المرور عمدًا أو دون قصد ببعض البذور التي نسجت أحلامًا ورديّةً لتكون يومًا ما ثمرةً مستقلّةً في ذاتها ولا حتّى في إحساسك بالنصر حينما تنتهي من المعركة المحسومة مسبقًا لصالحك!

بل تمكن اللذّة الحقيقيّة في كونها ثمرةً من شجيرتنا نحن!!

زرع (نادر) شقيق الروح ثم تولّاها أبي الحبيب بالرعاية والريّ ثم تفقدناها جميعًا في نموّها ثم كبرت ثم استوت..

تعجب الزرّاع؛ لنغيظ بها صاحب الفرشة المهترئة في أرض السوق يرفع ثمنها على الناس على كل الناس.. إلّا نحن!

تستوي،

تتصالح مع الشمس، تتحول من خُضرةٍ زاهيةٍ لصفرةٍ مُغريةٍ لعين الناظر إليها، والجميع هنا لا يغضّ النظر!

يأتي عليها الصباح.. يغسل الطلُّ غبار الزمن عنها يستريح عصفورٌ مهاجرٌ فوق الفرع الذي يحملها.

يميل الفرع..

تتدنّى القطوف..

تسقط على الأرض حييّة..

تذهب أمّي تربتُ عليها.. أنتِ صاحبة الدار يا حلوة. ولمزيدٍ من الأنس؛ فنادَيْ على صويحباتك.

تنظر الثمرة لصويحباتها في خجلٍ من رفض الأمر وأملٍ في الاستجابة توافق الصويحباتُ أخيرًا.

بيْد أن العصفور المهاجر قد استأنف رحلته فمن ذا الذي سيساعد الفرع على التدنّي والصويحبات على الدلال؟!

وها هنا يكون دور أمّي في مساعدتهن، تجمعهنّ أو يجتمعن، ثم تنادي عليّ بصوتها الحنون: - رومة خُدي.

يا إلهي، ها هي اللحظة الجميلة تتجدد!

في الحقيقة يكمن جمال اللحظة في تلكم التفاصيل المختفية والمتخفية في ستار التكرار!

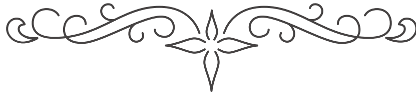
تكرارٌ يملُّ منه أو لا ينتبه له الغافل عن اغتنام لحظاتٍ هي في الحقيقة كَنزٌ.. لا يقدّر بثمن!

أنا ممتنّة لأخي وأبي وأمّي الذين كانوا سببًا في شعوري بالامتلاء والامتلاك.

أن تملك شيئًا فأنت مَلِك. لا يستطيع صعاليك الكون حرمانك منه حيثما ووقتما يقرروا هم!

تمامًا.. تمامًا كما أنا ممتنّةٌ لذلكم الشخص القابع خلف جدران الحرمان والظلام والظلم.

وما نقم سجّانه منه إلّا أنه أراد لنا ـ وإن لم يستطع تنفيذ ما أراده بعد ـ أن نكون مالكين لسلاحنا لزرعنا ولدوائنا.



(٣٩)

عرفتها قَدَرًا. أحببتُها دون ترتيب لذلك، يبدو أنها وضعتْ في خطّتها أنني (دعوتها الفردية) التي لابد أنْ تصعد (للصف) الذي لم تمكث فيه هي كثيرًا بعد ذلك لظروفٍ ما.

أزعم أنها كانت كريمة معي بغض النظر عمّا يضطرها لذلك من مراحل الدعوة الفردية.

أزعم ؟ بل أجزم بذلك.

إذا رأيتَها لأول وهلة تصنّفها على أنها من أسرةٍ متوسطة الحال، لكن لأنني أنا من أسرة متوسطة الحال فقد كنتُ أعلم جيدًا أنها ـ مقارنةً بي ـ تكاد تكون مُعدمة!

طُردنا من المدينة الجامعية معًا بسبب انتمائنا للجماعة.. قطنّا سكن مغتربات يبعد عن الجامعة مسافة تستوجب عدم المجازفة بالترجّل لكن للمعلومة التي أعطيتك إياها أعلاه (توسط حالي وفقرها المدقع) كانت المجازفة عندنا هي الأساس وما عند الناس طبيعي؛ عندنا استثناء!

نصل السكَن سويًّا، أنظر للسرير كأنه عزيز طال انتظاره أرتمي عليه بقدميّ المهلكتين!

أغفو قليلًا أستيقظ على رؤيتها وهي تخلع نعليّ!

ثم تأخذ الجوربين.. تغسلهما، تجهّز الغذاء تنادي برفق أنهرها إذ النوم عندي مقدّم على ما سواه حينئذ!، تدعني قليلًا ثم تنادي مرة أخرى.. رومه كُلي لقمة ونامي!

على الرغم من أننا من قريتين متجاورتين؛ إلا أن علامات (الفلاحة) كانت تبدو عليها بينما أنتمي أنا للـ (عرب)؛ مما يجعلني أناديها دائمًا بابتسامة مستغلة طيبتها وسموّ روحها.. يا فلاحة!

نضحك نقهقه أقول لها:

- يليق بي أن أكون أميرتك وتكونين تحت إمرتي وللغرابة.. لا تعترض!

أتعرف ما اسمها؟ اسمها أميرة!

زُرتُ أميرة في بيتها في فترة خطبة عانتْ منها الأمرّين من شاب قاهريّ لم ترق له الـ (فلاحة) كثيرًا؛ فرأيتُ في بيتها العجب!

الطيبة حدّ السذاجة، والكرم حد إطماع الضيف، والترحيب حدّ الشكّ أيهما أهل البيت؟!

رآني جدُّها، فعرف أنني من الطحاوية؛ فقال مستغربًا: (يا خايّيين)!

ويا (خايين) عندنا تعني استغرابك قائلًا: يالله أو يا إلهي أو استغراب الأعاجم.. أوه ماي جاد!

ليه مستغرب يا عمّ كريّم؟ أسأله ضاحكة؛ فيقول:

- ده انتي يا بنتي كان جدك صاحب الأرض وكنت بشتغل عنده وكان هيجتلني لما لجاني في مرة لابس جلابية بيضا زي جلابيته وكنا لازم نمشي من جدّام السرايا حافيين!

أندهش أنا؛ إذ لا يشير حالي إلى أنني حفيدة مَن يحكي عنه عمّ كُريّم. لكن لا بأس يعجبني ماضيّ جدًّا؛ سيساعدني أكثر في التندّر على (أميرة)!

تنفسخ خطبة أميرة من القاهري، أبكي لأجلها؛ إذ أعرف مما بينها وبين الله ما يجعلها تستحق الكثير. تهمس لي.. صابرة يا مروة!

الـ(شاليموه) كان (ماسورة) عند أميرة، والـ (تَنْدَه) التي نستريح تحتها من الهجير هي (عرّيشة) في قاموس أميرة.

أسمع منها مرادفاتها؛ أضحك حتى أكاد أسقط على الأرض. أحفظ ما قالت، أنتهز أي جلسة تجمع بيني وبين صويحباتي وأميرة؛ لأعيد عليهنّ ما قالت. يقهقهن تضحك أميرة بينما تنعتني بـ (رخمة) فلا تملك إلا أن تضحك.

نتعب من الضحك، يمرّ الليل يشهد تهامسنا.. أسرارنا.. قيامَها.. ونومي!!

لم أكن أعرف أنّ أميرة تعاني من وسواس قبل هذا اليوم حينما استقلينا (تاكس) في محافظة السحر والخيال.

ركبنا، جلسنا، انطلق السائق.. فإذا بي أسمع (وسواسها اللفظي) إذ تنطق حرف السين متكررًا!

- إسسس إسسس إسسس إسسس!

يا إلهي!

ترددتُ في سؤالي لكن لابد من إنهاء ما أسمع!

- أميرة انتي بتقولي إيه؟!

ضحكتْ أميرة التي كانت تخاف من الرياء ولم تكن تقصد أبدًا أبدًا أن أسمعها لولا انسجامها في (الاستغفار)!

لم تكن (موسوسة) لكنها كانت تردد (أستغفر الله العظيم)!

أسرتني أميرة! أعترف.

كانت تصغرني بعام لكنني ما شعرتُ تجاهها إلا بما يشعر التلميذ نحو شيخه، والابنة نحو أمّها، والجاهل نحو حكيم يتعلم منه.

ذات يوم اتصلت بي، وقد انقطعت بها السُبل..

- مروة متقدم لي واحد وخلاص هوافق!. خلاص يا مروة معدش ينفع أرفض خلاص هوافق!

كان لا يرقى الرجل لما تتمناه وقد أعطى والدها موعدًا عصر اليوم.

يطرق الباب رجلٌ. أهو؟

لا. بل آخر أتى في نفس الموعد!!

أبو يوسف.. كان هذا الاسم الذي قرأته على شاشة الحاسوب في قهوة نت (سايبر) يوم صحبتُ أميرة مُرغمة بأمر خطيبها الذي عقد عليها وسافر للخارج وود أن يسمع صوتها، فلم يجدا بدًّا من أن تكون مروة هي المساعد في فتح الحاسوب والصوت والكاميرا الذي جهلتْ أميرة كيفية التعامل معها!

جهّزتُ الحاسوب، فتحنا الكاميرا، لحيةٌ كبيرةٌ تملأ الشاشة مبتسمة وجه (محمود) الذي التحى لتوّه دون أن تطلب منه أميرة (المنتقبة) ذلك. تضحك أميرة خجلى، يضحك لها محمود (أبو يوسف) على اعتبار ما سيكون!

لم يكن أبو يوسف مُلتزمًا قبلها ما يجعله يلتزم بعدم الحديث معي حين جاء للمشفى أثناء خطبتها أتذكّر ذلك اليوم جيّدًا.. يتصل بأميرة في الإسماعيلية يأتي من محافظة أخرى ليراها قبل السفر. تطلب منّي أميرة مرافقتها لحين الخروج من بوّابة مسكننا أرى شبحًا هنالك.. يقترب الشبح..

- إزيّك يا أبلة مروة؟

أردّ على الشبح. يطلب الشبح منّي مرافقة خطيبته معه ليكرمني بضيافة قبل سفره أعتذر للشبح متحججة بأنّهما لابد من أن يتعرفا على بعضهما بعيدًا عن أي أحد.

يقول لي الشبح كلمات لازلت أذكرها:

- تعرفي يا أبلة مروة والله والله أني جاي عشان أميرة تعرفني. إنما أني أعرفها من زمان.. حاسس إن أني أعرفها من زمان جوي!

أستيقظ من الذكرى أنظر لوجه الشبح الآن في الحاسوب رجلٌ ملتزم يشعّ من وجهه النور. أترك للحبيبين فُرصة الحديث. أخرج خارج الـ(سايبر) لحين الانتهاء!

يُحدّد موعد الزفاف وللقدر الغريب؛ أكتشف في نفسي أنني (كوافيرة) جيّدة!

لستُ جيّدة في كل الحالات لكن الأميرة (أميرة) فقط ستضع النقاب الأبيض على وجهها، أضع لها النقاب أتأكّد من كل تفاصيل الفستان أصحبها في عربة واحدة إلى المطار؛ حيث ينتظرها في بلد أخرى (محمود)..

منذ أيام قلائل تهاتفني أميرة:

- عاملة إيه يا رومه؟

أخبرها ببعض أمري ثم أسألها عن أخبار أبي يوسف وأبارك لها على العربة الجديدة باهظة الثمن التي تتفسّح فيها في شوارع الكويت.

تحكي لي عن عمل زوجها في الشركة الفخمة تستأذنني لتفكّ عَركةً بين (روان) و(يوسف). ابنة الشيخ محمود وابنه على اعتبار ما ـ بالرضا ـ كان..

(٤٠)

فكرت في شراء (واحد جمبري)، وحذاء، وحقيبة، وخمار.

قررتُ ذلك بالفعل، استعديت للنزول.

تذكرتُ شيئًا ربما يكون ذا أهمية.

ما أملكه الآن من نقود لا يصل إلى خمسة جنيهات (مصرية طبعًا).

الغريب أنني لم أفقد الأمل لحظة، ما مثّلت النقود أهميةً عندي يومًا. أحب في نفسي هذه الخصلة.

مع كامل حُسن ظني وإيماني بغدٍ أفضل؛ ذهبتُ لـ (جُحا) بجوار (بتاع الجمبري) تمامًا. وبمنتهى الثقة طلبتُ منه بجنيه مسقعة!

من مزايا المسقعة أنها (تسطل)!

اتسطلت!

«مسقعة جحا حرام شرعًا؛ لأنها تُذهب العقل» فتوى مستقبلية متوقعة!

أفقتُ بعدها على دقّة جوال من صديقة لي:

- مروة، هستناكي تيجي لي على ما أطلع الجمبري من التلاجة!

ممتاز؛ يتبقى لي الحذاء والحقيبة والخمار.

يقولون إن المرتّب سيكون في (ماكينات) الصرف غدًا سأبتاع كل ما

أريد طالما آمنتُ بذلك!

(لو أنّكم تتوكلون على الله حقّ توكله)

ما خذلني ربّي قط!

لو أنّي أتوكّل في أمور القلب ـ كما في أمر النقود ـ على الله حقّ التوكل؛ إذًا لكُفيت ولمُلئ فراغ الروح كما مُلئ فراغ المعدة.

الله جميل!

لطيف!

ينقصنا بعض الجمال في عبادته سبحانه وبعض اللطف في الفهم عنه.

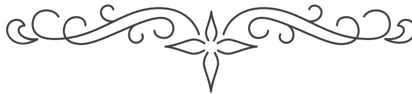
ينقصنا أن نتّخلَق ـ بما يناسب بشريتنا ـ بصفات الله.

أن نكون صنعة الله بحقّ ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾!

أن تكسونا ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾

إذًا = لافترشنا الجمال والتحفنا الجمال وتماهينا مع تفاصيل الجمال.

ربِّ ارزقنا يقين المتوكلين عليك وتوكّل الموقنين بك.



(٤١)

عمّ (حَمَام)

إلى الآن لا أعرف اسمه الحقيقي، لعله (محمد).

كان يأتي لقريتنا على عربته (الكارّو) مُعلنًا بطريقته الخاصة قدومه الكريم.

تحوي عربته كلَّ شيء ألومنيوم (حلل، طشت، لبّانة، قروانة، أبريق) بلاستيك، أواني الطبخ، في مقدّمة العربة يخطو حمار عم حمام خطوات مطمئنة إلى أناس بينه وبينهم سابق معرفة، وفي مؤخرة العربة يربط عم حمام (شيكارة) كبيرة يجمع فيها مقابل ما يبيع.

هل كان المال المقابل كثيرًا جدًّا ليملأ هذه الشيكارة؟!

بالطبع لا؛ لأنه لا يوجد آنذاك عند أهل قريتنا مالٌ أصلًا!

- عمي حمام إيجه عمي حمام إيجه.

أنادي وينادي معي (نجوى ونورا وعزة وعلاء) وغيرهم فيما يشبه (الزفّة) ثم يذهب كل منا لوالدته لتلحق بالكنز مصباح علاء الدين سنفركه الآن.. بعد لحظات سيكون عندنا أطباق جديدة وحلل ومصفاة وكوب وكل شيء.

تخرج الأمهات تحمل كلّ منهنّ المقابل الذي استطاعته - والذي يعجب في كل حال عمّ حمام!

أذكر الآن ذاك المقابل الذي كنت أساعد في تجميعه أحيانًا.

(حبّة كيزان درة، بعض النعال البلاستيك والزجاجات البلاستيك،

أي شيء حديدي، خلاط قديم، مروحة غسالة فقد أبي الأمل في إصلاحها، بعض بيض فراخنا الحبيبة، شوية رز أبيض أو شعير!).

يعدّ عم حمام المقابل أو يزنه (حسب ماهيته) ثم يقدّره بالعملة (الصعبة أوي زي الشلن والبريزة) ثم يخبر أمي (وعمتي فاطنة وصفية وهنية وخيرية وروحية) بسعر ما يردن من كنوزهن المحمّلة على المصباح!

نسيت عمّ حمام؛ أنسانيه الزمن نسيت حتى ملامح ابنه الذي كان يجاورني في الفصل وله شفاعة خاصة (ابن عم حمام)!.

أشفق على عم حمام بالطبع أين هو الآن؟ وكيف حال حماره؟ وهل امتلأت الشيكارة أم لمّا تمتلئ؟

سبحان الله نحن في نعمة إذا ما قورنّا بعم حمام. وأنا شخصيًّا لي في الحياة هدف صحيح لم أصل إليه بعد.. لكن ظني أنني (سـ) أبلغه يومًا!

كانت شبه هذه الأفكار تدور في ذهني حين أشار لي (نادر) على فناء واسع به كميات مهولة من النفايات التي تم فصلها بعدد كبير من العمال يعملون على قدم وساق قائلا:

- مروة.

- نعمين؟

- تعرفي الأرض دي بللي فيها بتاعة مين؟

- مين يا نادر؟

- بتاعة عمّك حَمَام.

- !!

ثابر.. تصل.

(٤٢)

في المشفى خرجتُ من العيادة أفكّر في بعض أمري ويفكّر هو فيَّ!

كان بجواري تمامًا يحدّق فيّ ولا أراه.

هكذا يفعل بنا جهل المقامات!

نعتبر بعضهم بلا قيمة، ويعتبرنا البعض ذوي قيمة ثم العكس هو الصحيح!

مازلتُ أفكّر..

ماذا أفعل في كذا وكذا وكذا؟

تضيق بنا الدنيا إذا اتسع حيزها فينا!

هنالك مازال يفكر.

ما الذي شغلكِ عنّي؟!

أشغلكِ كذا أم كذا أم كذا؟

يغفر لي يغازلني ثغره رغم انشغالي عنه!

تتسع لنا الدنيا إذا اتسعت لنا بسمة مخلص.

انتهيتُ من تفكيري إلى.. لا شيء!

وقررت - بعد طول حساب وجمع وطرح - أنني: لا أملك من أمر نفسي أيّ شيء!

هكذا أنت، يا مجرّد شيء!

انتبهتُ أخيرًا له.

يخبّئ رأسه الصغير بين كفّيه، يغمض عينيه، يقف مواجهًا لزاوية جدار، يدسّ نفسه في ناحية، ثم فجأة يفتح كفيه، يخرج منه رأسه الصغير، يفتح عينيه.. ولسان حاله (بِخْ خ خ)!

يضحك.. ويكأنني.. (بخيت) ثم يعيد الكرّة!

تركتُ ما في يدي وطرحت أفكاري تحت حذائه، فديتك أنا!

سألته كعروسٍ تتأكد من اصطفاء زوجها لها من بين النساء:

- إنت بتخبّي نفسك مني أنا؟!

فأومأ برأسه وابتسم ابتسامة شملتني كلّي.

أنستني كلي!

نسيت أنني (مس مروة الطحاوي) وفي رواية كاذبة خاطئة: دكتورة!

وقفت على الجهة الأخرى للجدار، لم آبه للأطباء والتمريض والمرضى والعمال، قزّمتُ نفسي قدر المستطاع؛ لأطاله!

خبّأتُ نفسي منه؛ ليبحث عني؛ لأقول بخ؛ ليضحك؛ لأحيا!

انتبهت من الحقيقة على ضحكة عجوزٍ تراقبنا من بعيد عدلتُ من هيأتي؛ لأواجه الزيف من جديد!

(٤٣)

جاورتني في المقعد الذي يلي السائق مباشرة.

أحب هذا المقعد على وجه الخصوص، فلا أنا بالقائد ولا أنا بالبعيدة عن دائرة القيادة.

بدا عليها الإرهاق، غفت عيناها قليلًا..

أكره النوم في المواصلات!

النوم والحب ينبغي على المرء إسرارهما.

تململتْ، حاولتْ الوصول لأفضل طريقة لتنام تكتّف يديها ثم تضع رأسها وسطهما، تضع حقيبتها كوسادة، ترجع رأسها للمقعد، تعيده للأمام، تتأفف، تستغفر، تصمت، أقدّر حاجتها للنوم.

النوم والحب ينبغي علينا ألا نقلل من حاجة المرء إليهما.

ثَقُل رأسُها لحظة، مالتْ – دون وعي – تجاهي حتى لامس رأسها كتفي، ثم انتبهتْ – من الحياء – كالملدوغ!

يقولون (حنونة).

لا أجزم بذلك على وجه الدقّة ولكنّي أجزم بأن فاقد الشيء يعطيه، وبقوّة!

اتسعتْ عيناها وحدّقتْ فيّ؛ تأهّبًا للاعتذار.

سألتُها: ما اسمك؟

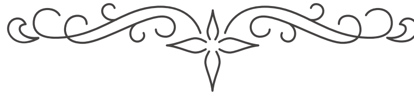
فأجابت: سلوى.

فأملتُ بيديّ رأسها على كتفي: نامي يا سلوى!

النائم والمحبّ يستحقان الشفقة.. لو تعلمون!

استسلمتْ (سلوى) لنومها، واستسلمتُ أنا لسلواي.

شكرًا لقلبٍ سمَح لرأس همومنا أن يستند - ولو قليلًا - على كتفه.



(٤٤)

جلستُ يومها في قسم الاستقبال والطوارئ وبي همٌّ حسبته وقتها شديدًا!

أحبُّ التمريض لكني، على الرغم من ذلك، أشعر بالفشل يا وَرْدَة!

(أسرّ إلى زميلتي شعوري)

– ليه بس يا مروة؟، إنت شاطرة والله.

– يعني سنة أولى كلها عدّت من غير ما ادّي حُقن وريد خالص وآدي سنة تانية هتخلص أهي وأنا لحد دلوقت خايفة، إيديا بترجف كده والوريد بيورم على طول!

كانت هذه هي مشكلتي الكبرى (رغم تفاهتها)

وكنتُ بالفعل أكره يومي بسبب إحساس الفشل الملازم لي خاصة إذا رأيتُ زميلة تصغرني أكثر مهارة مني في (حقن الوريد).

لم تُشعرني «وردة» بـ« تفاهة» مشكلتي لم تُهملني لم تقلل من شأني وقد أطلعتها على «ضعفي».

لم تنفر

لم تسخر

لم تنس

لم تتجاهلني.

طلبتْ منّي طلبًا أعددتُه يومها (بُطوليًّا)

- مروة، هاتي سرنجة ٣سم ومحلول ملح وتعالي.

جهزتُ ما طلبته «وردة» منّي، سحبتْ ٢ سم ملح وأعطت لي (السرنجة) ثم مدت لي ذراعها وقالت مبتسمة:

- إديني الحقنة دي.

- وردة! مش هينفع.

- يابت عادي ده محلول ملح.

- بس دراعك هيورم!

- لا، هتديهالي كويس جدًّا ياللا بس.

جرّأتني ابتسامتها وثقتها فيَّ، أدخلتُ الإبرة في ذراعها، لم تتألم!

نجحتُ أخيرًا!

- شايفة بقى الموضوع سهل إزاي؟

سؤال «وردة» أجبتُه أمس بدعاءٍ لها وقد فرّقتنا السنون.

أمس قالت لي زوجة عمي: الله يسترك يابنتي، إيدك خفيفة، والله ماحسيت بيها!

إطراء اعتدتُ سماعه بفضل الله، وأشعر بسعادة كبيرة تغمرني في كل دعوة أسمعها من المرضى.

تُرى كم دعاء ناصفتنيه «وردة»؟

كم حسنة تمسي وتصبح في ميزانها؟

كم خطوة أخطوها في المشفى أو في القرية - بمنتهى الثقة - تخطوها معي «وردة» وابتسامة وردة وتشجيع وردة وثقة وردة وتحمل وردة وعدم سخرية وردة وعدم تجاهل وردة وصبر وردة وعدم نفور وردة وإطراء وردة؟

يا (وردات) حياتنا

ثقوا بنا

ابتسموا لنا

شجعونا

تحمّلونا

اصبروا علينا؛

سننجح يومًا إذا فعلتم.

سنذكركم دومًا حينما نفعل

اجبروا بخاطرٍ كسره الهمّ.

جبر الخواطر على الله.

(٤٥)

كانت من المرات النادرة ـ إن لم تكن المرّة الوحيدة ـ المرّة التي قرأتُ فيها حِكمةً ذات معنى على ظهر ذاكم الشيء المسمى (توكتوك).

كنت بدوري في (توكتوك) آخر، يعقب صاحبه ذو الحكمة الرقراقة، وكانت المسافة بين (التوكتوكين) بعيدة بحيث لم أتمكن من فهم العبارة جيدًا، لكنها على كل حال راقت لي جدًّا إذ تقول:

- حُبُّك جنّتي، باسمك آية.

أكبرتُ كاتب العبارة، وقلت في نفسي: إي والله، حبّ الله جنّة وأي جنة!

حُبّك جنتي؛ إذ الحب في حد ذاته جنّة، تدخلها قبل دخولك جنّة الخلد، فياهناء مَن دخل الجنتين!

تبقّى الشطر الثاني من العبارة: باسمك آية.

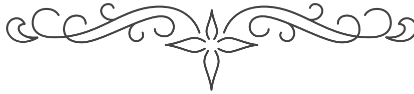
أخذتُ أقلب ما أوتيتُ من علم؛ لأفسّر هاتين الكلمتين فلم أستطع لكنّي في نهاية الأمر سلّمتُ قائلة: يقصد تقريبًا أن اسم الله آية، أو أنه يقصد مثلًا اسم الله الأعظم، لا أعرف.. لكن على أية حال.. جميل جدًّا أن نرتقي هكذا ويرتقي ذوو (التكاتك) إلى هذا الحد، فنحن في أشدّ الحاجة لدعاة متحركين ينقلون في الناس معنى الدين بيُسر، بل لا أبالغ.. إن قلتُ إن شابًّا كهذا السائق قد يؤثّر في العامة أكثر من شيخ على المنبر!

حمدتُ الله على النعمة، وعلى أنه اصطفاني من بين خلقه؛ ليذكّرني به سبحانه ولو بكلمة بسيطة كتلك..

هدّأ التوكتوك (الداعية) قليلًا ليجتاز (مطبًّا)، بينما أسرع التوكتوك الذي يُقلّ حضرتي، ما جعلني أمعن أكثر في العبارة، فلربما منّ الله عليّ ففهمتُها كلَّها.

وبالفعل فهمت العبارة بكل دقّة ووضوح وجلاء.. تقول:

- حُبُّك جنّني يا اسمك إيه!



(٤٦)

«قومي ذاكري برّه، الجو حلو جوي»

ينصحني الحبيب أبي بعدما رأى اعتكافي على الكتاب في غرفتي منذ أول أمس. ينصحني بتغيير الجو والمذاكرة في الشمس والخضرة وزقزقة العصافير كما أحب ربما يغيّر ذلك من مزاجي المتعكر.

لا يعرف أبي أنني أذاكر (التاريخ الأموي والعباسي)؛ حيث الحزن والحسرة والقهر والكآبة بين كل باب وباب، بل بين كل سطر وسطر، بل ـ والله ـ بين كل كلمة وأختها!

ملأتُ الكتاب بعلامات التعجب والاستفهام والحولقة والاسترجاع!

أسأل سيدنا معاوية، لماذا لم يسلّم أمور الشام لسيدنا عليّ؟!

وأسأل سيدنا عليّ لماذا لم يوجّه جيشه لقتلة سيدنا عثمان بدلًا من توجيهه لجيش معاوية؟!

وأسأل أمّنا عائشة وسيدنا طلحة والزبير، لماذا خرجتم طالبين القصاص رغم معرفتكم أن سيّدنا عليّ لا يمانع، إنما غلبه آلاف البغاة على أمره؟!

وأسأل عبيد الله بن زياد.. لماذا قتلت سيدنا الحسين؟!

وأسأل سيدنا الحسين.. لماذا ذهبت لكربلاء رغم نُصح كبار أبناء الصحابة بعدم الخروج؟!

وأسأل أهل الكوفة.. لماذا خذلتم الحسين؟!

وأسأل يزيد.. لماذا حاربت أهل المدينة؟! وأهل المدينة لماذا خرجتم على يزيد؟

وأسأل الحجاج.. كيف استطعت قتل عبد الله بن الزبير؟! وكيف قتلت سعيد بن جبير؟!

وأسأل الحسن البصري.. كيف تحملت ظلم الحجاج؟!

ولماذا عُزل عُقبة ووليّ أبا المهاجر ثم كيف قُتلا وضاعت القيروان؟!

وأسأل العباسيين، لماذا وجهتم أسلحتكم للأمويين، والأعداء كُثُر؟!

وعبد الله.. لماذا خرجت على المنصور؟!

والمأمون.. كيف قتلت أخاك الأمين؟!

والأمين.. لماذا فضّلت ابنك على المأمون؟!

وبغداد زمرّدة العالم.. كيف ضاعت؟!

وسامرّاء، ألا زلتِ تسرين مَن رأى؟!

أذاكر.. في مادة وضعها واحد من رويبضة العصر يجتزئ من الكلام بلا أمانة، ويوجّه طالبه المغلوب على أمره للقول بأفضلية الغالب الظالم على المظلوم!

ثم لا يستحي من الله عندما يعرّج على عصرنا الحديث (البلد هتضيع.. والخوارج في كل زمان)!

أسأله: مَن يخرج على السيسي من الخوارج؟!

يقول بكل خسّة: نعم.

أسأله: والسيسي عندما خرج على مرسي؟

فيردّ ببساطة: متغلّب!

يسألني في كتابه (وعليّ أن أحفظ الإجابة منه لأجتاز الامتحان)

ـ هل كان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أهلًا للخلافة؟

ـ عليّ أن أجيب بـ نعم، ولو لم أكن أرى ذلك!

يعلّمني مؤلف التاريخ أن أهل السنة والجماعة مع السيسي.

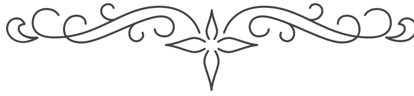
أذهب للمنصّة لأجادله فلا يسمع؛ لأكتشف فيما بعد.. أنه من أصدقاء سعيد رسلان!

أفتح الكتاب؛ لأجد في حلقي غصّة، ثم أمتثل للناصح:

(حضروا وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا) فأتوقّف، يُعاد التاريخ أمامي.

أبكي من الظلم وأعاود القراءة استعدادًا للامتحان.

ينظر لي أبي لألبّي طلبه أقوم من مكاني؛ حيث في الخارج الشمس والعصافير والخضرة، وفي داخلي ضحكات متعالية لنقفور وإيرين وليون وهولاكو والحاكم المتغلب!



(٤٧)

جلس أبي بجواري وأمي منذ دقائق ممسكًا بنبتةٍ حسبتُها أعوادًا من الجرجير؛ فإذا بها نبتة الطفولة المفضّلة (جلاوين)!

يا إلهي!

أحبُّ هذه النبتة جدًا:

- مِن أين لك بها يا ابويا؟!

قال فَرِحًا ـ كأنه يخبر عن امتلاكه لكنز ـ لجيتها (لقيتها) في الجصرية (القصريةَ) اللي هناك دي.

ينبت الجلاوين في البرسيم عادةً وقد أوشك على الانقراض، لكن هذه النبتة حنّت لنا على مايبدو فنبتت في قصرية الورد الموجودة في فناء بيتنا.

أمسك أبي بالجلاوين مُقبضًا عليه وبيده الأخرى نصف رغيفٍ من الخبز، ويكأنه يأكل جَمَلًا!

(نتشت) بعضًا منه، وحلاوة الأكل في تناتيشه لَمن لا يعلم إتيكيت الريفيين.

تذكّرتُ، وأنا ألوك عود الجلاوين، أغنيتنا المفضلة في الصِغر والتي كان لابد لها أن تصاحبنا في رحلة البحث عن الجلاوين.

كنّا نقول:

جلاوين جلاوين جلاوين.

وعزيزة بتحب حسين.

وحسين مابحبهاش.

وضربها براس الفاس.

أنشدتها، فضحك أبي وتسامر مع أمي بينما أخذتُ أفكّر في حال عزيزة.

لماذا لم يحبها حسين؟

ولماذا ضربها بأحدّ آلةٍ عنده.. وهي الفأس؟

ألم يعلم حسين أن مجرد جفائه معها أشد عندها من الفأس؟!

سامحيني يا عزيزة، كنتُ أتّخذ من ألمك أغنيةً أغنيها!

ثم ماذا فعلتِ يا عزيزة؟

أجابتني أغنيتني الأخرى التي كنتُ أنشدها أثناء هطول الغيث، تقول:

الحتة تمطر (كنت أنطقها: تنتن)

الحتّة تُمطر

وعزيزة بتنشر

راحت ع القاضي

قال لها: مش فاضي!

راحت ع العُمدة

إدّاها بُمبة

بمبة حديد

من بورسعيد

سعيد مات!

وهكذا تدخل عزيزة في دوامة بعد الأخرى، لا تقتص من حسين!

أتساءل.. ما الذي حدث بين عزيزة وحسين؟

وأين.. أين ذهب الحب؟

ابتلعتُ ـ مع علقم التفكير ـ الجلاوين.

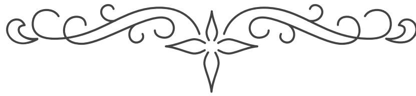
وعاهدتُ نفسي أن أخبر كل حسين أن عزيزته تحبه بصدق والحب أقوى من كل شيء يا حسين!

وأن أخبر كل عزيزة بالصبر، والصبر يحلّي القدر والله يا عزيزة.

يا حسينيون، اصبروا على عزيزاتكم.

عزيزاتي، اصبرن على حسينيكن!

لم يزل أبي أمامي أخبره بلا صوت الصبر حلو يابويا.. والله.



(٤٨)

في المرحلة الابتدائية كنت أحب الإملاء جدًّا، وكنت ـ بفضل الله ـ أحصل على الدرجات النهائية فيها، حتى أن أبي ـ بارك الله في عمره ـ كان يحتفظ بكرّاسي ليتفاخر به أمام ضيوفه.

ذات يوم كنت أذاكر نصًّا أخبرنا المعلم (أستاذ عبد العظيم) أنه سيكون موضع اختبار إملائي، وكان النص يحتوي على الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان أبي بجواري فقال لي مشوّقًا:

– أجولك على حاجة حلوة جوي؟!

ـ قول يا ابويا، إيه؟

ـ لو إيجه الأستاذ في الإملا قال لك (صلى الله عليه وسلم) مش تكتبيها كلها، إنتي ممكن تكتبي (صلعم).

ـ صلعم؟!

أبويا وهو فرحان:

– آه.

ثم أخذ يشرح لي:

– الصاد من كلمة (صلى) واللام من لفظ الجلالة (الله) والعين من (عليه) والميم من (وسلم).

ـ يا سلام يا ابويا.. فكرة حلوة جوي!

في اليوم التالي كان موعدي مع الإملاء شعور بالتيه والفخر (عارف انت إحساس لما تكون عارف حاجة ماحدش غيرك عارفها).. لذيذ.

انتهت الإملاء وكتبت المعلومة الخطيرة.. جمّع أستاذ عبد العظيم كراساتنا وجلس يعلمها (في نفس الوقت يا مؤمن) وفجأة.. نادى عليّ:

- مروة!

ـ أيون أنا عارفة من غير ما تقول كل مرة بآخد عشرة من عشرة. يا ترى هتكافئني بإيه النهارده؟

ـ تعالي.

ـ أووووه ماي جاد! (وفي رواية.. يا إلهي) وفي رواية معاصرة (يييييس!)

مدّ يده.. كنت لسه بسلم أياميها عادي المشكلة إنه مسلمش أو هو سلّم بس بحائل!

حائل شبه العصاية بالظبط!

هو انا تقريبًا انضربت!

ـ صلعم؟! صلعم؟! كاتبة لي صلعم؟! ليه! يهود احنا؟!

(وهنا توقف مشهد الكراس لا أذكر هل تسلمتها بيميني أم سبقتني للتختة)!

ذهبت للبيت وكل ما يحمي أبي من موجة سخطي أنه أبي وأخذتُ على نفسي عهدًا ألا أستمع لمثل هذه النصيحة منه أبدًا!

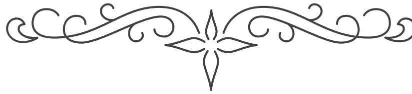
مرّت الأيام وأتى اليوم الذي أذاكر فيه التراث ثم مقتطف من كتاب (المزهر في علوم اللغة) للإمام السيوطي رحمه الله، باب معرفة النحت ثم أفاجأ بعشرات الكلمات من قبيل:الدمعزة، والمشألة، السبحلة، حولقة، شقحطب، بسملة، هيللة، حمدلة، جعفدة، طلبقة، سمعلة.. وغيرها!

أتاري أبويا كان بيعلمني النحت!

زدتُ علمًا بعلم أبي، وزدت علمًا بجهلي والله يسامحك يا أستاذ عبد العظيم!

راسك أبوسها يا حاج.

الكلمات اللي فوق واجب!



(٤٩)

ليس من الضروري أن يكون (الشاي) هو سيّد الموقف، بل قد تقوم بعض حبّات الـ (حلبة الحصى) بالمهمّة على خير وجه، ولا مانع من قطف أعواد النعناع ـ المجاورة لدرج البيت كفردٍ من أفراد الأسرة ـ إلى الكوب الزجاجي (رخيص الثمن).

يجلس أبي ـ على غير عادة ـ على الكرسيّ البلاستيكيّ ثاني اثنين إذ لا ثالث ولا (عزول) يحول دون نظرتي بـ كُلّي إلى أبي.

يعرّج بنا الحديث إلى الزرع المنثور كالدُرّ في فناء بيتنا، يشير لي أبي على كل نبتةٍ أو شجرةٍ أو فسيلةٍ؛ ليجيب عن أسئلةٍ أسأله إياها إما مستفهمة أو مدّعية الاستفهام؛ حتى أغنم من الحديث معه بقدر ما أستطيع.

دي لمونة نجلتها (نقلتها) هنا عشان تطرح، يقول أبي.

ودي توتة بس لازم انجلها بعيد عن السلم؛ عشان جذرها مش يبوظه، مش عارف طلعت لروحها ازاي!

ودي عنبة عمك جمعة شاف الورج (الورق) بتاعها بيجول لي دي عنب بناتي مافيهاش بذر خالص شفتي عناجيد (عناقيد) العنب طرحت ازاي؟!

ودي اييييـ.. اممم.. البتاعة دي اللي بتبجى ريحتها حلوة.

ـ فل؟

ـ لا يا شيخة فيها حرف السين.

ـ ياسمين؟

ـ أيوه، ياسمين. بنحسبها هتطرح بس شكلها نشفت. ودي ريحان، والصفصاف دي صعبانة عليا جوي (قوي) عودها انقطم بس الحمد لله طلعت تاني.

ثم يشير لشجرة تجاور جلستنا على بُعد مترين قائلًا:

ـ ودي كانت مليانة (نوّير) والله نوّير كَتير جوي بس وِجِع (سقط) كله!

أنظر لها متسائلة.. أي شجرة تكون؟ فيقرأ تساؤلي مجيبًا:

ـ سُفندي. كَلْتي منها السنة اللي فاتت؟، بس الحمد لله النوّير وجع منها كله!

ـ الحمد لله ليه؟! مش كان كله سفندي؟!

فيجيب:

– لسه صغيرة عمرها ما كانت تستحمل السفندي دِه كله، عارفة انتي لو كان كل النوير فِضِل فيها.. كانت اتقطمت وماتت!

– يالله يا ابويا! بل يا كرمك يارب.

يسوق ربّي اللطيف أبي لي لا مِن أجل ذاكم الحوار كلّه، بل مِن أجل تطييب الخاطر الذي ظنّ أنّه كُسِر!

على لسان أبي تأتِني الحكمة الربانية.. ثمرة اليوسفي في حد ذاتها نعمة، لكن وجودها على تلكم الشجرة الآن.. الآن ستكون عليها نقمة!

تمامًا تمامًا كما بعض النعم التي جالت بخاطري راغمةً إيايَ على تذكّرها، يقول لي ربّي:

قد لا تطيقينها الآن، عود قلبك لن يتحمّل وإن كنتِ ترين في التعجيل بها خيرًا.

بعدما فهمتُ من أبي كيف يكون في حرمان الشجرة خير؛ فهمتُ عن ربّي ـ كذلك ـ كيف يكون في حرمان المرء خير.

شكرًا لك أبي

والحمد لله ربّ العالمين.



(٥٠)

في بيتنا القديم كانت عندنا حظيرة كبيرة بها دجاجٌ وبطّ وأوزّ و(رومي) وبعض الأرانب وبرجٌ للحمام فوق السطح وعنزٌ تلد ما شاء الله، نبيعها ـ وما ولدَتْ ـ ونبقي على بعضه ليكون أضحية العيد.

كنت أخرج من الباب (الزنج) لأجد أمامي شجرة الـ(عَبَل) السامقة تتوسط أرضًا قد نبت فيها الزرعُ لتوّه كأنما يضحك لمحيّاك!

أتوسّط النبتات الصغيرة تختالني واحدةٌ منهنّ باذنجاناتٌ صغيراتٌ تبتسم لك وبعض الفُلفُل يتسلّق التربة كطفل يريد التشبّث بك!

أتوسّط البراعم لا لشيءٍ؛ إلا لبحثي عن الزنابير التي قد اتّخذت من أُلفة الريف موطنًا فأبرمتْ مع صغاره اتفاقًا ألا تلسعهم أبدًا!

في بيتنا القديم؛ كانت الشمس لا تجد صعوبةً في التحدّث إليّ صباحًا ومساءً. أراها كلّها وتغمرني كلّي أدقق في قرصها النظر. إي والله.. في قرصها، فتحدّث إنسان عيني بأسرارٍ أحفظها عنها وأسرارٍ تحفظها عنّي!

كنتُ أرى تسليم الشمس للقمر والسراج للنور والنهار للّيل والعاشقين لمكنوناتِ أرواحهم!

أتذكرون الـ(بيانو)؟

صوتُ المطر الذي كان يتسلّل ليلًا إلى سطح غرفتنا ومنه إلى أرضها تملأها أمّي بأواني مختلفة الحجم والمادّة فيختلف صوت ارتطام نقاط المطر بها فيصدر عنها (تن تن تن تن) فتسمع معي أحلى مقطوعة موسيقية يبكي لها أمّي وأبي، وأتيهُ طربًا منها أنا؟!

في بيتنا القديم كان جلّ عمري الحقيقي فانتقلنا للجديد فبدأ الزيف!

في بيتنا الجديد ندوس على بلاطاتٍ كبيرةٍ مُطعّمة ببعض الألوان الباهتة، هنا.. هنا. كانت براعم الفلفل وبسماتُ الباذنجانات!

بنينا على الأرض؛ فماتت الفسائلُ وطارتْ الزنابيرُ وتعلّمت ـ من باب الاحتياط ـ اللسع!

اقتنينا رائي (تلفازًا) كبيرًا، نرى فيه القمر نهارًا والشمس ليلًا فلا نكاد نسمع لهمسهما معًا!

اقتنينا ـ كذلك ـ جوّالات ستّة بعدد أفراد الأسرة الصغيرة التي امتدّت وتفرّعت وتسلّقت تُربةً الحياة كالفُلفل تمامًا!

لا ضير من جهاز (لاب توب) تدفن فيه رأسك بين رماله المسمّاة بالتواصل الاجتماعيّ؛ لتفقد بعدها تواصلك الروحيّ!

في بيتنا، زادت المقاعد والأرائك والفُرُش والجفان والأكواب والكؤوس الدّهاق والـ (فريزر) الممتلئ بالدجاجات التي لم تعد تسمع لها همهمات مع ديوكها ولا أذان الفجر تسمعه من رجالها إلا فيما نَدُر!

في بيتنا الجديد، (تمدّنتُ) أنا فأشرتُ على أمّي بضرورة إعادة التفكير

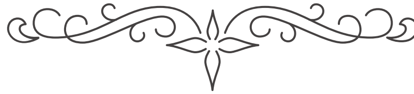
في تربية الطيور فلا أرنب ولا أوزّ ولا رومي ولا حمام، بيْد أن العجوز تمسّكت ببعض ما (يسترها) أمام الوافدين!

في بيتنا الجديد، لم يعد أبي يهتمّ كثيرًا بأن تكون ضيفتنا عنزةً مُعمّرة تأتي لنا بضيوفٍ صغار نسمع مأمأتها فنسكر طربًا، بل أمسى يشترط على التاجر أن يكون الضيفُ تَيْسًا يكتفي ببعض البرسيم إلى أن يُذبح بلا مودّعين له وإن الله يحب المحسنين!

كَثُر عندنا خَبَث التكنولوجيا في مقابل موت كل ما يُشعرك بالحياة!

في بيتنا لم أزل..

ولم تزل الـ (عَبَلة) السامقة أصلُها طيّبٌ وفرعها في السماء تؤتي لي أسرارها كل حين بإذن ربّها. تبكي عمّي (محمود) الذي غرسها ثمّ مات، وتبكي ـ ضمن ما تبكي ـ براعمَ وشجيراتٍ وطيورًا وزنابيرَ ومروة!



(٥١)

بينما أستعد للسفر إلى القاهرة، كان أبي يستعد للذهاب إلى السوق.

نرتقي نحن ونرتقي.. ونرتقي، ويبقون هم في أماكنهم يكتفون بنظرات الإعجاب بنا، بينما لا نأبه نحن كثيرًا بنظرة عرفانٍ لهم بل لا نخلوا حينها من خجل من حالتهم التي بقوا عليها لأجلنا!

أرتدي في الغرفة حجابي، تنادي عليّ أمي، تقترح عليّ أمرًا غاية في الأهمية بالنسبة لها، بينما لا يسلم من ضحكات سخرية منّي بعرض رأيتُه لا يليق بي!

تقول أمي:

– ما تركبي الموتوسيكل ورا أبوكي يوصلك لحد الموجف (الموقف) وتحطي اللاب في الجفص (القفص) بدل ماهو تجيل (ثقيل) عليكي كده!

لا أعقّب إلا بضحكاتٍ أتهكّم بها على عدم مناسبة الطرح!

لا أكتفي بذلك بل أقول ـ إمعانًا منّي في عِظَم نفسي بنفسي وعِظم جهلي بقدر أمي:

ـ يا أمه يعني اللاب أبو أربع تلاف جنيه أحطّه في القفص ؟!!

تكتفي المسكينة بابتسامة تسليم، ويكأنّ ما أمعنتُ فيه قد توطّن فيها!

أنتهي من ارتداء حجابي، أسلّم عليها، أقبّل يديها؛ لأنني أعرف في قرارة نفسي كيف سيمرّ يومي إن لم أفعل وكيف سيكون إذا فعلت!

أغادر المنزل تاركةً أبي يُحكم رباط القفص في مؤخرة دابّته الصناعية المتحركة (موتو) بشكل دائريي (سيكل).

أقف على قارعة الطريق أنتظر أيّ مركوب يقلّني إلى حيث أريد، يطول الانتظار، تشتد حرارة الشمس، بإمكانً كل الناس ـ عدايَ أنا ـ تحمّل الانتظار. أي انتظار!

على بعد أمتار مني أراه هنالك بـ(جلابيته) و (شملته) ونظّارته و.. موتوسيكله.

يقف بعيدًا عني، مُحافظًا على تلك المسافة التي تثبت رقيّي أنا ولا تجزم للمارّة بأنني ابنته متمسّكًا بذاك الأمر الذي أمرتُه به ـ ضاحكةً ـ ذات مرة:

– لو حد سألك تقرب لي إيه؛ قول أنا خولي الجنينة بتاعهم. إوعى تقول إن انت أبويا!

نظر إليّ على استحياء، وسألني برفق ولطف شديدين:

– تيجي؟

– آجي؟ وهل في ذاك سؤال يا تاج الرأس؟!

– لحظة إوعى تمشي إلا لما أقولك أحط رجلي فين؟ لحظة أحط اللاب في القفص، يمناي حول خاصرته، يسراي فوق كتفه؛ لأنني أعلم يقينًا أنه في يوم ما ـ أدعو الله ألا يكون قريبًا ـ سأدفع جل عمري وأضعاف ثمن اللاب لأراه أرى دابّته أرى قفصه أسمع صوته ولا أستطيع!

أقلّني إلى حيث أردت شعرتُ بِرُقِيّ!

(٥٢)

ينادونها (أم أحمد)..

تبدو ـ رغم نقابها ـ على قدرٍ من الجمال، تعرف من جسمها المترهّل قليلًا وخطواتها المتثاقلة أنها تجاوزت الأربعين تقريبًا.

تستنتج من عمرها هذا أن ابنها (أحمد) في العقد الثاني من العمر أو بأقل تقدير في عقده الأول إن كانت قد تأخرت في زواجها قليلًا. وهل تتأخّر مثلها في الزواج؟! أستغفر الله.

موظّفةٌ هي واثقةٌ بنفسها جميلةٌ عندها أحمد وبالطبع متزوجة يا لهنائها!

لا أعرف ما المناسبة التي جعلتني أتطرّق لذكر أحمد أمامها، يبدو أنها أسدتْ لي معروفًا أو أكرمتني فدعوتُ لأحمد ابنها بالبركة وأن يحفظه الله ـ تعالى ـ لها.

في الحقيقة لا أذكر المناسبة لكنني أذكر ردّها.

- أنا مش بخلّف يا أبلة مروة!

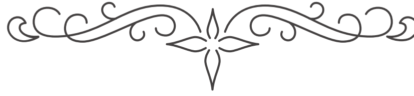
- وأحمد؟!

هيا نصيغ المنشورَ من جديد.

ينادونها ـ من باب الفأل الطيّب ـ (أم أحمد).

تكتشف أنها لا تملك أحمدًا لا في عقد أول ولا ثانٍ ولا في نصف عقد!

لستَ موظّفًا مثلها، ولستِ موظّفة، لستِ على قدرٍ كبير من الجمال، وزوجك ليست في جمالها لكنّكَ.. لكنّكِ عندكما (أحمد).. يا لهنائكما!



(٥٣)

(لو فيه حاجة صغيرة خلاص، لكن لو المشكلة في الشاشة هيتعمل بـ ٧٠٠ ج)

كان هذا هو ردّ الأخ الذي أثق بمهنيّته والذي وكّلتُ إليه صيانة جوالي الذي ارتطم بدوره في الأرض؛ ليُثبت تلك المقولة الصادقة (المصائب لا تأتي فُرادى)!

(بس متتأخريش)! قالها الرجل باسماً لعلمِه المُسبق بأن التأخّر عن موعد استلام الجوال طبيعتي؛ حيث أنها ليستَ المرة الأولى التي أتعامل معه فيها.

وعدتُه بألا أتأخّر، لا لشيء إلا لاحتياجي فعلًا للجوال ذلك الجسم الجامد الذي يقصر المسافات بين الأرواح!

كان ذلك يوم الأحد الماضي، وكان الموعد المُتّفق عليه مساء يوم الاثنين.

صباح يوم الاثنين ـ وإمعانًا في حُبّ المصائب للرفقة الآمنة ـ تأكّد لي احتياجي لدراهم كثيييييرة كثيرة هذا الأسبوع تحديدًا.

كما تأكد أنه من المُحال أن أنفق على صيانة الجوال ما يرهقني فضلًا عن إنفاق سبعمائة جنيهٍ جملة!

تأخرتُ على الميعاد، فات يوم الاثنين كاملًا، ثم الثلاثاء كاملًا، ثم الأربعاء إلى ثُلثيه تقريبًا، وفي كل لحظة يشتد فيها احتياجي للجوال

كما يشتد فيها احتياجي للمال فيزداد كُرهي فيزداد تأخّري عن موعد التسلّم!

قررتُ أخيرًا الذهاب مضطرة مُكرهة وفي حقيبتي قدر يسير من المال، وأرتّب مع نفسي الكلام:

- إن قال لي سبعمائة؛ سأبيع الجوال (وبناقص)!

من ساعة كنت عنده..

- إيه الأخبار؟!

- لسه واحد جاي حالًا باع لي قطع غيار أخدت لك منه جزء صغير كنتِ محتاجاه، وفّرت عليكِ كده تمن الشاشة.

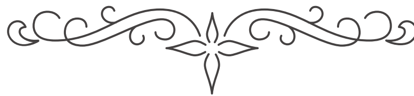
ثم أضاف- وهنا الشاهد- لو كنتِ جيتي امبارح كنت قلت لك محتاج شاشة!

تأخّري يومًا واحدًا (مُكرهة) كان فيه لطفٌ بي!

هل قلتُ إن (المصائب لا تأتي فُرادى) كلمة صادقة؟

أأخبركم بأصدق منها؟

{.. وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ..}



(٥٤)

يحكي لي أبي الحبيب ـ بارك الله في عمره ـ أنه ذات مساء كان عائدًا من عمله البعيد جدًّا عن بيتنا، وكانت قريتنا- قديمًا- لم تصلها العربات ولا الكهرباء بعد، مما اضطره أن يقطع المسافة من العمل إلى المنزل سيرًا على الأقدام.

ولأنه كان متعجّلًا على ما يبدو؛ فقد كان مشيه هرولة، وفجأة.. إذ بصوت خطوات تلاحقه!

كانت الدنيا من حوله مظلمة تمامًا وطريق العودة يشبه الصحراء وصوت الخطوات التي تلاحقه يزيد في كل مرة!

كانت الخطوات المخيفة تزيد إذا زادت سرعة أبي، وتسكن تمامًا إذا توقّف هو!

يمشي.. يسمع صوتها.. يقف؛ فتختفي.. يُسرع، تُسرع.. يقف.. تختفي!

في الحقيقة خاف أبي!

وقرر أن ينقذ نفسه من العدو الذي يلاحقه في الظلام الدامس، قرر الجرْي.

أخذ أبي يجري ويجري ويجري، وكلما جرى أكثر؛ جرى مَن خلفه وراءه يكاد يمسك به، يفتك به، يقتله!

جرى أبي إلى ما شاء الله ولا أحد يشعر به والأمر جلل والخوف شديد!

يبدو أنّه شعر بالتعب قليلًا من كثرة الجري، فاضطر اضطرارًا إلى الراحة ولو لحظات، وبينا هو كذلك وضع يده على صدره ليخفّ الـ (نَهَجان) قليلًا. وفجأة!

وفجأة.. شعر أبي تحت يديه (في جيب قميصه) بجسم مربّع صغير يشبه تمامًا علبة أعواد الثقاب (علبة كبريت) بل هو كذلك.. ًعلبة كبريت. أمسك بها أبي فإذا بخطوات العدو تختفي تمامًا، يمشي أبي، يُسرع.. يجري، وفي كل مرة لا أثر للخطوات المخيفة.

أعلمتم السر؟ كان ما يسمعه أبي هو صوت اهتزاز أعواد الثقاب داخل جيب قميصه في الحقيقة لم يكن هناك عدوٌّ أصلًا!!

أحيانًا.. بل أحايين؛ نصنع عدوّنا بأنفسنا!

نصنع خوفنا حزننا خطرنا بأنفسنا!

أحيانًا.. نحزن ونخاف من لا شيء حتى يضيع بخوفنا كل شيء!

أنت أكبر من عدوّك الموهوم يا رجل!

أنت أكبر من حزنك وخوفك!

أنت صنعة الله.

كنتَ قبضة بين يديه..

يد الملك!

والأرض جميعًا قبضته..

لا تخف إلا ذنبك مع ستره.

تقوَّ به اسجد واقترب.

اذكر ربّك يا (ابويا).

ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

(٥٥)

الله كريم..

كانت بداية معرفتي بالله عن قُرب عندما كنتُ في المرحلة الثانوية (الفنية تمريض)، فقررتُ أن (أجرّبً) كرم الله تعالى مع عبده إن هو تقرّب له سبحانه؛ فكان هذا الموقف..

وقبل سرده وضعتُ التجربة بين قوسين؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يُجرَّب.. حاشاه.

لكن عقلي القاصر كان يجرّب وقتها، والموقف لو كان لله خالصًا ما حكيته هنا، ولكن لما كان خلاصة تجربة؛ فكان من الضروري نقل النتيجة.

كان مصروفي وقتها خمسون قرشًا. أستقلّ عربة للمدرسة بنصفها وأعود بالنصف، فخرجتُ ذات صباح للمدرسة وكنتُ قد سمعتُ عن فضل الصدقة وأنها لا تنقص مالًا أبدًا؛ فقررتُ المجازفة!

رأيتُ طفلة أعلم أنها يتيمة، فقلتُ في نفسي (هديها ربع جنيه واشوف ربنا هيعمل إيه، جه الربع جه، ماجاش أبقى استلفه وأنا راجعة) وناديتُ عليها.

ـ نور.

– نعم يا أبلة مروة.

ـ خدي (وأعطيتُ المقسوم لها مع مسحة على رأسها وذهبت)

خطوتُ خطواتي أحسبها وألوم نفسي مرة وأشجعها مرة وأنتظر المقابل مرات!

مرّت من أمامي عربة (وطبعًا العربيات حدانا لها صندوق بتركب فيه وكابينة فيها السائق وحد معاه واللي في الكابينة مش حاسين باللي في الصندوق، واللي في الصندوق بيحقدوا ع اللي في الكابينة)! أشرتُ للسائق فتوقف وأدخلتُ الصندوق!

في نهاية الطريق ترجّلت نحو السائق كي أعطيه ربع جنيه حق الذهاب؛ فوجدته يقول لي (أجرتك خالص يا أبله)!

ـ أنا؟!

ـ أيوه الأستاذ دفع لك الأجرة.

ونظرت فإذا برجل لم أميّز ملامحه حتى الآن ولكنه كان تقدّم لخطبة زميلتي آنذاك ويبدو أنه رآني معها ذات مرة؛ فأكرمني إكرامًا لها!

في الحقيقة كان الكرم من الله تعالى ابتداءً وهكذا نجحت (التجربة).

– أيحاسبني الله تعالى بالمثل؟ يعني أطلّع ربع جنيه؛ فيبعت لي ربع!؟

لا الكريم اللطيف سبحانه!

أنهيتُ الدوام المدرسي وترجّلتُ إيابًا لعربة تقلّني للمنزل وأنا فرحة بالخمسة وعشرين قرشًا فإذا برجل ينادي بأعلى صوته في الشارع (مروة مرواااااه أمرواااه)

نظرتُ تجاه الصوت فإذا به (عم زغلول) قريبٌ لنا وما انتبهتُ له أصلًا سألني:

– مش مروَّحة بيتكو يابا؟

ـ آه إن شاء الله.

ـ طب تعالي أنا رايح هناك.

وكنت قد ذهبتُ للمدرسة في الصندوق فعدتُ منها في الـ (كابينة) وما تمنيتُ في ذهابي إلا توفير حق العودة فإذا بي أعود بفائضٍ عنه فسبحان من أكرمني.

عامل الله كما يستحق؛

يعاملك أكثر مما تستحق!



(٥٦)

على يمينك يا عمّ رضا..

جملة استنتجتُ من خلالها قوّة صاحبها وإن لم أره؛ فقد كان صوته جهوريًّا بحيث جاءني من المقعد الذي يليني مباشرة في الشاحنة وكاد يخرق في أذني خرقًا يشبه إلى حدٍّ كبير ثقب الأوزون!

توقّف عمّ رضا ونزل المنادي في مكانه المحدد مودّعًا إيانا راجلًا إلى بيته القريب، بينما انطلق عم رضا يجدّ المسير بشاحنته إلى غايته.. موقف السيارات.

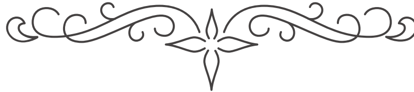
لم أجد بُدًّا من (السَرَحان) بخيالي مع عمّي رضا قليلًا، تخيلتُ لو توقف عم رضا عن الاستمرار في طريقه مع أول راكب ترك الشاحنة! تخيلت لو جلس عم رضا يبكي ويندب حظّه: لماذا تركنا هذا الراكب؟ تخيلتُ لو اتهمنا عم رضا بعدم الإخلاص في قيادته بدليل من ترك الشاحنة قبل الوصول للنهاية؟ تخيلت.. لو حدث أي من هذه الأمور.. كيف سيكون موقفنا؟ وكيف سنصل بعدها إلى الغاية؟!

عمّ رضا وشاحنته هو أنت وإيمانك والراكبون هم صُحبة الخير والتاركون هم فرط العقد والطريق هو الوسيلة وموقف السيارات هو الغاية.

جِد الطريق يا رجل (والرجل للجنسين على السواء) ثم جِدّ في المسيرِ ولا تلتفتنّ إلى عثراته ولا يلهونّك الشوك عن شذى الورود ولا

ينهينّك صاحبٌ وجدَ غايته دون غايتك أن تستمر في طريقك إلى الغاية الكبرى!

أقول: طريقك معروف بالمكاره محفوف إن وجدتَ فيه صحبةً فمألوفٌ وإلا فغير مألوف. والكيّس الفطِن من لم يغترّ بكثرة السالكين في طريق ليس طريقه، ولم يخف وحشة من قلّة سالكين في طريقه، فالكل راحل فجهّز إلى غايتك رَحْلِك واستعدّ بزاد التقوى لطول رحلتك ولا تُثقلنّ على راحلتك بكثرة متاعك. فدع من المُتع أدناها واجنِ من الثمار أحلاها وسلّم نفسَك لبارئها تسليماً هو وليُّها ومولاها.. والحَمد لله ربّ العالمين.



(٥٧)

يقطع أحمد المسافةَ بين المشفى وتجمّع عربات بلدته سيرًا على الأقدام. مسافة لا تستغرق أكثر من رُبع ساعة أسير خلفه بأمتار حيث أتّجه لنفس المكان الذي سأنطلق منه لمحافظتي، . تمنعني حرارة الشمس- مع ثقل حقيبة الحاسوب مع حقيبة السفر- من التفكير أكثر في أي شيء. فقط أنظر لأحمد نظرة تقدير. بعد قليل سألحظ خالد.

خالد.. (بتفخيم الخاء) ولدٌ مُهذّب، يمرّ بي راكبًا درّاجته يعرفني لكنه يستحي أن يلقي عليّ السلام أسعد بحيائه أغبطه على دابّته التي ستقلّه إلى حيث شاء وتحميه سريعًا من قيظ الشمس.

من بعيد أنظر لأحمد الذي تجاوزني بمسافة كبيرة، وأنظر لخالد الذي مرّ بي لتوّه وأنتظر لحظة مرور خالد على دراجته بأحمد الراجل؛ لأرى إلى أي حدٍّ هما صاحبان يهمّني كثيرًا في الحقيقة أن يكونا صاحبيْن!

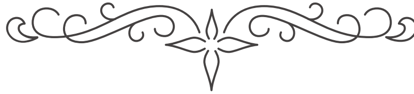
يلحق خالد بأحمد. أستنتج أنه ألقى عليه السلام أعرف ذلك من التفاتة أحمد ناحية خالد. يبدو أن خالدَ يعرض على أحمد الركوب خلفه سيرفض أحمد؛ لأنه اقترب من عربات بلدته. يهدّئ خالد سرعة درّاجته يكلّم صاحبه لن يروق الأمرُ كثيرًا لخالد. لا يحسن به الحديث إلى صاحبه من (ارتفاع) و (سرعة) بعد قليل سيقرر خالد النزول ليكون في (مستوى) و (سرعة) صاحبه.

أراهما من بعيد بخطواتٍ وئيدة.. أحمد على اليمين وخالد على الشمال بينما يسحب على شماله دراجته التي هبط من فوقها لـ (يرافق) صاحبه.

بغضّ النظر عن ثقل حقيبة اللاب وحقيبة السفر وقيظ الظهيرة؛ ابتسم أخيرًا.

جميل أن يرفق بك أحدهم، أن يهبط لك من (علوّ) أن (يتنازل) عن بعض قدره، أن يُشعرك بقيمتك، أن يصنعك يحبك كما أنت، يرافقك حيث خطوتك أنت قدرتك أنت قرارك أنت يحب فيك أنت!

ما يُشعر الروح بجمال الحياة، ومعنى الحياة، وسر الحياة؛ أن يقرر أحدهم أن لن يسبقك. لا لا.. بل سـ (يرافقك) يرفق بك لا يتعجّلك لا يلومك لا يعاتبك لا تتخطى يده ـ في رسم حلمه ـ حدودَ حلمك؛ لأنّك.. لأنك حلمه!



(٥٨)

تقدّم لي بنموذج على هيئة ذراع يتدرّب زملاؤه على الحَقن فيه، أعجبني النموذج. شكرتُه أخبرتُه ـ وزملاءه ـ أنني سوف أكرّمهم جميعًا في حفل ختام العام الدراسي حُدّد موعد الحفل. امتنعتُ عن الحضور؛ لكون الحفل تم تحت مُسمّى (الاحتفال بعيد الأم) كما أنني ابتُليتُ بمشوارٍ للقاهرة في نفس يوم الحفل؛ مما منعني ـ في الحالتين ـ من الحضور.

كنتُ قبل غيابي عن الحفل قد نبّهتُ على الأخصّائي الاجتماعي للمدرسة أن يسجّل عنده أسماء فلان وفلان وفلان. ثمانية طلاب تقريبًا وهو ـ أي الطالب صاحب النموذج ـ من بينهم لتفوقهم الدراسي في المادتين اللتين أعطيهما لهم ولتفوقهم الأخلاقي كذلك، ولزيادة التأكيد نبّهتُ على ناظرة المدرسة بتكريمهم نيابة عني؛ فوافقا متفضليْن.

صباح اليوم جاءني أحدهم يقول:

– يا مس، أحمد ماتكرمش!

ـ ليه؟ مش انتم كلكم اتكرمتم في الحفلة لما كنت مسافرة؟!

ـ كلنا اتكرمنا يا مس لكن أحمد تقريبًا نسيوا اسمه!

ـ طيب شوف هات الهدية اللي أخدتها أشوفها وأشتري له واحدة زيها بالظبط ونكرمه في الطابور واوعى تقول له.

ـ حاضر يا مس.

يبدو أن مَن أخبرني خبريّة أحمد لم يطق الإخفاء كثيرًا؛ فأخبر أحمدَ بما سيكون منّي فَرحًا شغوفًا برؤية فرحة زميلة المنتَظَرة على اعتبار ما سيكون منّي.

بعدها بساعة جاءني أحمد فَزِعًا يُقسم أنه لن يستلم الهدية!

ظننتُ أنه يرفض تسلمها؛ لأنها جاءت متأخّرة، كذا قالت زميلتي التي سمعتْ الحوار:

ـ يا مروة عنده حق؛ فرحتها ضاعت!

نظرتُ إلى أحمد بملامح معتذرة دون نطق وأضمرتُ في نفسي إسعاده في الطابور قدر المستطاع ًفكأنّما قرأ أحمد عليّ أمارات التأسّف فقال ما هالني من برعم أخضر في مثل عمره قال:

– يا مس، والله مش كده أنا فيه حساب بيني وبين ربنا أنا عارف ربنا عمل كده ليه. أنا بتعاقب على حاجة عملتها ومتقبّل العقاب ده مش لازم تعرفوا في إيه بس أنا عارف؛ عشان كده حلفت مش هآخد الهدية، وأنا سعيد إن أنا مش هاخدها!

هالني والله ما سمعتُ منه على قدر بساطة تعبيره، وتبدّلت ملامحُ الأسف على وجهي لدهشة وفرحة بتلميذي الذي يعرف مَن (الله) بل ويفهم عن الله تعالى ماذا قدّر له ولماذا!

قلتُ له ـ فرِحةً فخورةً به ـ عارف، أنا هكرّمك مخصوص عشان الكلمتين دول!

فنظر بغضبٍ شديد معبّرًا بـ:

– (ييييييه) أهو أنا خايف من كده! يا مس مش عايز حد يعرف اللي بيني وبين ربنا.

فأعطاني درسًا آخر في إخلاصه، رسم على وجهي الابتسام قلتُ له:

– أحمد، قُل آمين. فأمّن مُسبقًا، فأدلفتُ:

– رزقني الله وإياك الإخلاص.

قولوا آمين.

رزقني الله وإياكم الفهم عنه والحبّ له والفقر إليه والغنى به.



(٥٩)

جاءتنا إحدى الجارات للسؤال على أمي ولم تكن أمي بالمنزل، وكنتُ- جدًّا- مشغولة لكنّ الجارة قد بدت عليها الرغبة في الجلوس معي؛ فاضطررتُ للتسليم!

على مقعدين بلاستيكيين وبرشفات شاي مُنكّه بالقرنفل وتحت رذاذ السماء التي تتردد في إنزال الغيث؛ كانت كلماتها عن ماضيها في (بيت العيلة) ثم حاضرها مع زوجات أبنائها تشكو لي منهنّ متأثّرة بعد مقارنة تعقدها وللمصادفة تفوز فيها كل مرة!

بدتْ لي كلماتُها متكررة بيْد أنّه قد تبيّن لي في ختام حديثها أن الله ـ تعالى ـ قد ساقها لي أنا وليس لأمي كما ظاهر الأمر.

ختمتْ العجوزُ كلماتها بعبارة جديرة بالتأمّل تقول:

- يالله يا بنتي اللي حمّل يشيل!

وكأنّي بآي الله تُتلى على مسمعي وقلبي..

{ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ . وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا }

ياربّ سلّم.

(٦٠)

بجنيه ونص ومسامح اللي يدوق بجنيه ونص اللي جي متأخّر بجنيه ونص وأول بيعه بجنيه ونص البلدي، يُدلل بائع اليوسفي على بضاعته.

لا أعرف- تحديدًا- لماذا سُمي اليوسفي بهذا الاسم، لكنه ـ على كل حالٍ ـ قد اكتسب جمالًا في طعمه كجمال أحرفه.

على (تروسيكله)؛ ينشر البائع بِضاعته ويتحرك في الأزقّة الضيقة بين العمارات التي يقطنها مَن يجيد (الأَنَفة)!

أحبُّ هذا النوع من اليوسفي البلدي، صغير الحجم (وفي رواية.. الصُغنّن!)، (أبو قشرة لازقه عليه) هكذا أصفه لوالدي إذا اشتهيتُه وطلبتُ شراءه.

جميل اليوسفي حاول أن تنتزع ذاك الغشاء الرقيق المحيط بفصوصه الدقيقة وتلتهم فصًّا فصًّا، ستشعر ـ بصدق ـ بأنّك إنسان متميّز بل وتفوق كل أقرانك (في إيه؟.. مش عارفة بس هتفوقهم وخلاص).

لا أحبّ اليوسفي (التقليد) الذي تنتفخ قشرته كِبرًا وتعجرفًا، وهو يعلم أنه ما انتفخ إلا بفعل (الهرمونات)، ونحن نعلم ذلك، ونعلم كذلك أن (البلدي) أحلى في الطعم، ومع ذلك تجدنا نبتاع ـ إذا ما كنّا في زيارةٍ لقريب أو صديق ـ الفاكهة الكبيرة المنتفخة التي تتناسب مع (نفختنا ـ الزائر والمزور ـ الكدّابة)!

أمس كنتُ في زيارةٍ لأختي، ابتعتُ لها ثلاثة (كيلوهات) من الموز موز كبير الحجم، نظيف (المظهر)، مِصْفِرّ رغماً عنه!

لم أكن راضيةً عن نفسي آنذاك حين تركتُ الموز (المفرفط) الصغير المسكين وابتعتُ أخاه وأنا أعلم أن هذا الأخير لن يُضاهي الأولَ في حلاوته ولا (طعامة) مذاقه.

بمجرد وصولي لأختي سألتُها (هو إحنا ليه بنشتري الحاجة الكبيرة المنفوخة واحنا عارفين إن طعمها مش حلو زي الصغيرة؟)، لكنّي بررتُ فعلتي الشنعاء تلك بأن أختي الكريمة بطبعها سـ(توزّع) على جاراتِها ما (تَشَمْلَلْتُ) عليها به، وسيحكمن ـ بالطبع ـ على (نزاهتي) بناء على (حجم) الفاكهة وشكلها وإن كانت (ماسخة) و (ما تنداقش!).

الآن، أعجبني هذا اليوسفي (أبو جنيه ونص)، وغرّني من البائع قوله (وانا مسامح اللي يدوق) اقتربت أمسكتُ بواحدة، فقرّب لي الـ (كفّة) وقال لي ـ مزيدًا في الإغراء ـ بعدما طلبت (اتنين كيلو):

- ما تآخدي تلاتة ويبقوا بخمسة بس.

تظاهرتُ بفرحتي بحسبته التي في صالحي (مع العلم أنني إلى الآن ماعرفش الكيلو واقف عليّ بكام!)

لستُ متشوّقة لطعم اليوسفي الآن لكنّي تذكّرت قول أمي (نفسي في سفندي!)

أحملُ لأمي ما أظن أنه الأفضل؛ لأني أعلم أنها تعلم أنني أبتاع لها الأفضل دائمًا.

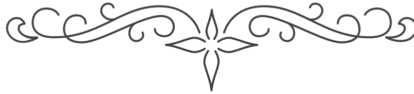
أمّي ليست كجارات أختي اللواتي يحكمن على أساس المظهر أكثر. هكذا حبيبُك لا يهمّه مظهرك بل تكفيه (حلاوة) داخلك.

أبرمتُ مع نفسي اتفاقًا.. لن أنساق وراء المظاهر أبدًا.

الفرخة (منتوفة) الريش ربما تكون أثقل في ميزان الـ (فرارجي) من (منفوشة) الريش والفاكهة الصغيرة أحلى من المنتفخة.. وإن خدعك الـ (فكهاني)

وصاحبُك/ أخوك/ زوجتك، صاحبتكِ/ أختك/ زوجك

طيّب القلب نظيف الداخل طاهر النفس صادق المودة حسن العشرة = أثقل في ميزان الدنيا والآخرة من هذا المنتفخ كذبًا ونفاقًا.



(٦١)

« آدم فلان الفلاني..»

.... ماما.

كانت هذه الرسالة التي خطّتها إحدى زميلاتي اللواتي سبقنني إلى هنا؛ حيث سكن المغتربات.

رسالة ليس فيها شيء إلا اسم «آدم» ثم ختامها بمرسلتها «ماما»!

قانون السكن لا يسمح للمتزوجات بالإقامة فيه. أم آدم إذًا لم تكن أمًّا على وجه الحقيقة.

خُطبتْ «ماما» لخطيبها فلان، ثم اشتاقت لابنها القادم الذي سمّتْه «آدم» ثم سافر قلبها رحلة الشوق لحبيبها الصغير ليرافقها ـ في رحلة الحب ـ إلى قلب آدم؛ لتضع رسالتها هنالك!

قلتُ سبحان الله يا أمّ آدم.. كَم أحببتِه؟!

ذاكم الحبّ يا رفاق.

الحبّ الذي يحملك لحبيبك حملًا؛ لتحتمل ما كان منه تحمّلًا، لتصبر عليه تجمّلًا.

الحبُّ.. كلمة سرّ الحياة، وزيت صهريجها ومادّة بقائها وحياتها!

الحبُّ.. ذلكم النبتة التي تكبر بريّ العفاف، وتُزهر في تُربة الصبر؛ ليستظل تحتها المتّقون الله في قلوبهم مَطمئنّين إلى عدم حصادها أبدًا.

مَن قال إن الحبَّ ينتهي يومًا؟!

لو انتهى الحبُّ.. انتهت الحياة!

وإنما ينتهي ـ وجديرٌ أن ينتهي ـ ريحُ الحبّ العقيم التي {تدمّر كلَّ شيءٍ بأمر ربّها}

الريح التي إن زيدتْ قتلتْ.. والنبتة رقيقةٌ يا صاح!

فاسلك لوصالك سُبل ربّك.. واعلم أن ما عند الله لا يُبتَغى بمعصية

١٥٤ فيس وليلى

الله.

والملك يغار على محارمه؛ فحذار حذار أن تنازع ملكًا في مُلكِه إلا بإرادته.

وسَلْ نفسَك:

هل أتمنّى أن يظلّ خليلي خليلي.. يومئذٍ في { دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ..}؟

لا يمسّنا فيها {.. نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ }

إذا كان الجواب: نَعَم.

فذاك الطريق:

{الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ..

إِلَّا..

الْمُتَّقِينَ}

فاتّق الله في حبيبك ما استطعت. فإن كان لقاءٌ في مرضاة ربّك وإلا = ففي الجنّة مُتّسع.

(٦٢)

ـ على جنب لو سمحت.

ودَلَفتُ إلى المشفى قبل وصول العَربَة إليها بعشرين دقيقةٍ تقريبًا.

فيس وليلى ١٥٥

كم خطوة سأخطوها وحدي في طريقي؟ وكم مشكلة سأعرضها عليّ ليؤشِّر دماغي على حلّها؛ لأتسلّم منه حلوله؛ لألقيها في أقرب سلّة مهملاتٍ تقابلني في طريقي؛ لأتمتم راغمةً: سلّمتُ أمري لله؟!

لم أستقلّ (تاكسي) رغم خوفي من هذه الطريق عندما يُخيّم عليها الظلام، قارنتُ بين ظلام الليل وظلام الهمّ؛ فإذا بالليل سراجٌ منيرٌ.. هكذا تخيّلتُ، فترجّلت.

تزورك صور مَن استغنوا عنك تطرق باب ذكرياتك ثلاثًا لا تفتح لها، ولا ترجع!

ضيفٌ ثقيلٌ هُم. مرغوبٌ فيهم ومرغوبٌ ـ في نفس الوقت ـ عنهم.

يزورونك تثّاقل، تستأنس. أنت مجنون!

فقدتك وقلت أتصل؛ أطمئن وأسأل عليك.

الله أمرنا بالوصل، لو ما تِجي أنا آجيك.

وينك؟ عسى ما شر.

أنشودة راقت ـ على الرغم منّي ـ لي؛ رددتها.

لم تكن في حساباتي لحظتها أبدًا قلّما فكرتُ فيها!

دقّ الجوال، ألقيتُ السلامَ عليها.. «بسمة « الأخت الكبرى لـ «بسنت»:

ـ خالتو، نفسي أشوفك يا خالتو وحشاني قوي.

أمسكت أمُّها بالجوال لتؤكّد لي «مروة»:

– بسمة نفسها تشوفك بقالها كام يوم بتقول نفسي أشوف خالتو.

فاجأني إصرار الصغيرة على اللقاء نجح شوقُها إليّ في أن يشوّقني ـ جدًّا ـ إليها!

وعدتُها بلقاءٍ بعد ثلاثة أيام، قبل الثلاثة بيومين كنتُ عندها.

بعد ضمّاتٍ حاولتْ من خلالها أن تشملني براحتيْها الصغيرتين، وبعد سلاماتٍ جُلّها ابتسامات حييّة.. جلسنا سويًّا؛ فأسرّت إليّ بمكنون قلبها:

ـ خالتو، عايزه أعمل عروسة!

في ثوانٍ كانت الوسادة بقايا وسادة.. (أخدنا الفايبر اللي فيها)

ودّعني جَوْربي الحبيب باكيًا؛ حينما سألتني بسمة:

– خالتو، ممكن آخد شرابك أعمل بيه العروسة؟

فتبسمّتُ مغلوبة على أمري:

- طبعًا طبعًا!

حُشر الـ (فايبر) في (الشراب) كما حُشر صغير الحمار في ملك مصر.

بلا مقدّمات.. بلا معالم!

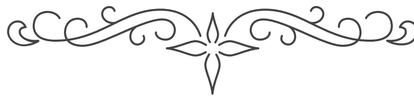
الكُحل سُنّة.. لماذا لا تُكحّل بسمةُ العروسة؟

أمسكتُ بجوربي الحبيب (سابقًا) أبتسم له و(أهشّك) فيه، وأهش له وأبش!

ابتسمتْ «بسمة» بدا عليها الفرح.. الفرح مُعدٍ انتقلتْ العدوى إليّ؛ فَرِحْتُ!

أولئك الّذين يحبّونك لأجلك يروْن سعادتهم في سعادتك يفخرون بك على بساطتك يتقبّلون تبسّطك لا يطمعون منك في شيء.. اللهم إلا أن تكون بخيرٍ يُعلنون لك كلّ آنٍ عن حبّهم يعبّرون لك يعبُرون جسر همومهم بك يقّدّرونك ويقدّرون ألمك واحتياجك يربّتون على نسماتٍ ستداعبُ عينيك يتمتمون بالدعاء لك.

عُضّ عليهم بنواجذ قلبك.. إذا كان لك قلبٌ تفقه به!



(٦٣)

إلى أرض الذُرة؛ حيث النبتات الصغيرة تشقّ طريقها في الأرض متطلعةً كطفلٍ صغيرٍ إلى وجه السماء؛ كنتُ أرافق عمّي «محمود»..

لستُ ماهرةً في فلاحة الأرض، لكنّي أعشق الطين على كل حال وأحبّ عمي، كذا أحبّ الأطفال.. طفل الإنسان والحيوان والزرع أيضًا!

ـ هآجي معاك.

ـ تعالي، عارفة هتعملي إيه؟

ـ قل لي.

ـ بصّي؛ كل عودين درة جنب بعض؛ هتشيلي منهم واحد وترميه هنا.

ـ ليه؟!

ـ إحنا بنحط أكتر من بذرة عشان نضمن إن واحدة منهم تطلع، لو سِبنا كل النبتات تطلع جنب بعضها هتآكل أكل بعضها، مش هتكبر؛ يبقى لازم نتخلص من النبتات الزيادة عشان الباقي يكبر (هكذا.. وببساطة شرح لي عمّي ما هذا معناه)!

لم أساعده كثيرًا يومها.. لماذا تحديدًا؟ هل لأنّي لا أجيد الفلاحة وحسب، أم لأنني تألّمتُ لقطع أمل نبتةٍ في الحياة لتكبر أختها؟!

ثم.. مَن يضمن أن أختها ستبقى؟ وستثمر؟ وما المُتعة أصلًا في حياةٍ اعتمدتْ على موت؟!

تركتُ عمّي..

تركني فيما بعد عمّي؛ مات.

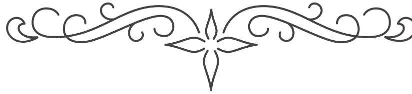
تمامًا كما ماتت النبتات الصغيرة المقطوعة مع سبق إصرارنا!

ظننتُ أني نسيت هذه الذكرى.

ما حسبتُ أنني سأضطر لمثلها يومًا..

أقطع بعض نبتات الحبّ لتُزهر الأخرى!

لم أفلح يا عمّي.. ماتت النبتتان معًا!



(٦٤)

من محافظةٍ لأخرى؛ تقلّه نفس العربة التي تقلّني..

يجلس بزيّه الريفي جلبابٍ وعمامة.

أجلس بما أظنه أصلح من ثيابه للتعامل خارج نطاق الريف تبدو على وجهه علامات (الفلاحة)، تظنّ به (الجهل).

أما أنا فالمتعلّمة ذات المؤهليْن، ولا مانع من أن تلقي نظرةً على حقيبة الـ (لاب توب) بيدي، وبالمرّة لاحِظ الرواية الموجودة بين يدي للتأكد أنني (مثقفة).

تنطلق بنا العربة يتمتم بكلمات لا يأبه بها الجلوس حوله بينما أقلّب أنا (بعنجهية) صفحات روايتي.

يخيّم الهدوء أنصت لصوته.. إنّه يذكر الله!

منذ غادرنا المحافظة الأولى حتى وصلنا الثانية؛ ما فتئ يذكر الله!

عرفتُ أيّنا الجاهل!

